كلية

مكتبة
الأدب
المغربي

سيميائية

رشيد بن مالك

مقدمة في السيميائية السردية

دار القصبة للنشر

مكتبة

الأدب

المغربي

رشيد بن مالك

أستاذ محاضر، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة تلمسان

مقدمة في

السيميائية السردية

دار القصبة للنشر

فيلا 6، حي سعيد حمدين – حيدرة – 16012 الجزائر

حقوق الطبع محفوظة للناشر

© دار القصبة للنشر الجزائر، 2000
تدمك : 0 — 243 — 64 — 9961
الإيداع القانوني 99 — 1174

القسم النظري

الأصول اللسانية والشكلانية للنظرية السيميائية

مكتبة

الأدب

المغربي

الأصول اللسانية
والشكلانية للنظرية السيميائية

مقدمة منهجية

سنسعى في هذا البحث إلى دراسة الأصول اللسانية والشكلانية التي انبنت عليها النظرية السيميائية (مدرسة باريس) واستمدت منها مصطلحيتها العلمية مع إجراء تعديلات على مفاهيمها تقصيا في ذلك الانسجام مع التوجهات الجديدة للبحث السيميائي المعاصر. ولتحقيق هذا المقصد العلمي، ارتأينا أن نخصص القسم الأول من هذه الدراسة لبعض المصطلحات اللسانية الأساسية التي كان لها عميق الأثر في بناء الصعيد السردي للنظرية السيميائية. ضمن هذا الإطار، ضبطنا المصطلح بتحديد منحدره المفهومي في اللسانيات مراعين في ذلك الشروط التي تم بها نقله.

هذا وقد ضبطنا في القسم الثاني من هذا البحث التوجه الشكلاني الروسي العام في الممارسة النقدية، واخترنا كنموذج لهذا التيار مورفولوجية الحكاية (*Morphologie du conte*) لفلاديمير بروب. وتتبعنا في أثناء التحليل «النموذج البروبي» (schéma narratif) الذي يعد جهازا نظريا أساسيا وضروريا لفهم تنظيم الخطاطات السردية.

وإذا كان هذا البحث قائما أساسا على رصد المنحدرات التاريخية للممارسة السيميائية الراهنة، فإن التاريخ لها أثار جدلاً حاداً في الدوائر العلمية إلى درجة أن من الباحثين، في مقدمتهم آن إينو Anne Henault، من يرى أن التفكير في التاريخ المفهومي للنظرية السيميائية سابق لأوانه.

قبل أن نناقش المسائل الواردة في بداية هذه الدراسة، يجدر بنا أن نعرض بعض القضايا الهامة التي عالجتها الباحثة آن إينو في مقدمة كتابها الموسوم تاريخ السيميائية[1].

1. قراءة في كتاب تاريخ السيميائية

تورد الباحثة في البداية فقرة تستدل بها فتقول :

«حتى لو افترضنا أن قرارات كازميرز Kazimirez الصادرة في 1966 اقتصرت على إعطاء رؤية شاملة على الصعيد الدولي حول تيار من الدراسات بدأ في الواقع عقودا عديدة من قبل - في جميع أقطار العالم على وجه التقريب وفي ذات الوقت - وسبق له أن أخذ يتجذر في المدة التاريخية، فإننا نتساءل إذا كانت هذه السنوات القليلة التي شهدت بحوثا متفرقة من هنا وهناك وحاملة لمعرفة هشة لا زالت في بدايتها جديرة بكل هذا الاهتمام»[(2)].

وتذهب الباحثة آن إينو إلى القول إن البحث السيميائي الذي عرف تطورا على يد أ. ج. غريماس A. J. Greimas ولا زال في تحول مستمر لا يسمح بتقديم حوصلة تاريخية حول النظرية السيميائية. وتؤسّس هذا التوجه على قناعتها بأن في المعنى ‌‌II نفي لـ في المعنى[(3)]. وتستشهد في ذلك بنص مأخوذ من مقدمة كتاب غريماس في المعنى II : «إذا كانت بعض المفاهيم الأداتية قد استنفدت قيمتها الكشفية، فإن الأمور تجري كما لو أن مشروعا جديدا قد هُيئ سلفا، وهو بناء علم تركيب لسيميائية الجهات (sémiotique des modalités)، وجدير بخلق إشكاليته الخاصة وتحديد الموضوعات السيميائية الجديدة. ويعد هذا المشروع، بعد عشر سنوات من المجهودات المبذولة، كفيلا بتحقيق الاستمرارية العلمية. وسواء تعلق الأمر بأزمة نماء أو استدارة حاسمة، فإن وجها جديداً للسيميائية بدأ يتشكل شيئا فشيئا»[(4)].

غير أننا نلاحظ أن التأريخ للحركة السيميائية بوصفها مشروع بحث في طور الإنجاز ضروري لموضعتها في سياقها التاريخي، وضبط معالمها الأساسية والكشف عن النظريات التي مهدت لظهورها. وهذه العملية ضرورية وكفيلة بتوجيه القارئ نحو أصولها مباشرة ؛ إذ بدونها سيجد لا محالة مشقة كبيرة في استساغة هذه النصوص السيميائية التي تكاد تكون معقدة في قراءتها حتى على المتخصصين. وتتعقد الأمور أكثر فأكثر باضطراب الخطابات السيميائية المعاصرة. وهذا ما لاحظه جان كلود كوكي J. C. Coquet

في دراسته الموسومة السيميائية، مدرسة باريس عندما أشار إلى تنوع تعاريف «السيميائية» والأحاديث المضطربة حولها [5]. واجتنابا للالتباسات المنجرة عن الاستعمالات الخاطئة التي تقف وراء هذا الاضطراب، جنح الباحث إلى تحديد أصولها وحقولها المعرفية بضبط إشكالياتها البحثية وخلفياتها النظرية وإبراز مقاصدها العلمية ؛ من هنا تأتي أهمية التأريخ لهذه الحركة التي تزايد الطلب على معرفتها [6].

وإننا لنرى، من خلال اطلاعنا على بعض الإنجازات السيميائية الراهنة، أن القطيعة الجذرية التي أشار إليها غريماس لم تحدث بالتخلي الكلي عن المنظومة السيميائية في أسسها وموضوع بحثها ومنهجها ومصطلحيتها، فهي بمثابة قفزة نوعية لا تدرك إلاّ في مشروع علمي يشكل «الفضاء الوحيد الذي يحمل فيه مفهوم التطور معنى» [7]. على هذا الأساس، لا يعد كتاب في المعنى II (1983) نفياً لما جاء في المعنى (1970)، بل هو امتداد للبحوث السابقة. وإذا كان في المعنى II محصلة خمسة عشرة سنة من المغامرات السيميائية، فإن القطيعة، في هذا المساق، تدل على أن المعرفة تحيا بتجاوز الأخطاء لا بإثبات الحقائق. انطلاقا من هذه القناعة، أجرى أ. ج. غريماس في كتابه في المعنى II مجموعة من التعديلات على مشروعه السيميائي، نذكر تلك المتعلقة بالهوة السيميائية الموجودة بين الفاعل البطل وفعله وسدها بمشروع رؤية جديدة حول نظرية الجهات (théorie des modalités) التي كان لها عميق الأثر في بحوث جان كلود كوكي [8] وجوزيف كورتيس [9].

2. الأصول اللسانية للنظرية السيميائية

1.2 موقع المسألة الدلالية من البحوث اللسانية

يمكن أن نقول، في البداية، إن الاهتمام بالمسألة الدلالية حديث العهد. وقد تبلورت معالم البحث الدلالي بظهور كتاب علم الدلالة البنيوي (*sémantique structurale*) [10] الذي يعد أول بحث في السيميائية اللسانية [11].

والحقيقة أن الدلالة في حد ذاتها شكلت قبل هذا التاريخ (1966) عائقا لم يكن من السهل تجاوز مفعولاته لاعتبارات عديدة. منها أن الدراسات اللسانية

في مجال الصوتيات (مدرسة براغ) والنحو (مدرسة كوبنهاقن) تقدمت تقدما كبيرا وذلك على حساب علم المعاني الذي بقي منسيا [12]. ولم يكن للباحث في تلك الفترة الحق في الكلام عن المعنى. فالمعنى، على حد تعبير بلو مفيلد، الذي يعزز هذا الطرح، قائم؛ الكلمات والجمل تعطي معنى، غير أن المعنى ليس شيئا نحسه باللمس [13]. بعبارة أخرى، إن موضوع البحث في العلوم التجريبية نراه بالعين، فهو قابل للملاحظة (observable) والقياس (mesurable) والدلالة، على عكس ذلك، إذ هي مجردة وغير ملموسة وغير قابلة للملاحظة أو القياس، لا تراها العين. وإذا كانت الدلالة مجردة، فإنه «يستحيل التقاطها علميا» [14] وبالتالي فهي لا تشكل موضوع بحث حقيقي.

غير أن التطورات التي شهدتها البحوث اللسانية ألجأت الباحثين إلى التساؤل حول الدور الذي يلعبه في منهجية وصف اللغة. إن الإجابات المصوغة في هذا الشأن قادتهم إلى الإقلال من أهمية الدور إلى درجة إقصائه إقصاءاً كاملاً [15]. ومرد ذلك إلى أن أي حديث كان يثار حول المعنى في تقدير الظاهرة اللسانية إلاّ وينزلق إلى إشكاليات هي أقرب إلى الفلسفة منها إلى اللسانيات.

هكذا نلاحظ أن اهتمامات اللسانيين، بصرف النظر عن الدعم المنهجي الذي قدمته نظرياتهم للسيميائية، لم تقترب من معالجة المعنى وتفرعاته اقترابا يُفضي إلى التقاطه كموضوع قابل للمعرفة، بل استبعد أحياناً وبقي أحيانا أخرى محصورا في إطار الكلمة والجملة. ولهذا التوجه والتحفظ اتجاه الممارسة الدلالية مبرراته ومنطلقاته النظرية المبنية على استحالة تلمس وفحص الدلالة كما هي الحال في تلمس الأشياء باعتبارها موضوعاً مجرداً وغير قابل للملاحظة [16].

إن هذا التوجه، على أهميته، يطرح اشكالاً. فهو لا يقدم البديل للكيفية التي ينبغي أن ندرس بها ما نقول ونكتب ونسمع. علما بأن المتكلّم لا يتكلم بالكلمة أو الجملة ولكنه يتكلم بالحديث [17]. ولئن افترضنا أن الدلالة غير قابلة للمعرفة، فإننا نستطيع أن نتكلم عنها بطريقة دالة [18].

2.2 مبدأ المحايثة

بناء على ما تقدم، تسعى السيميائية إلى دراسة التجليات الدلالية من الداخل مرتكزة في ذلك على مبدأ المحايثة (immanence) الذي تخضع فيه الدلالة لـ «قوانين داخلية خاصة مستقلة عن المعطيات الخارجية»[19].

وقد كرس فردينان دي سوسير Ferdinand de Saussure هذا المبدأ اللساني في كتابة دروس في اللسانيات العامة في أثناء حديثه عن استقلالية اللسانيات في موضوعها ومنهجها.

ويعبر سوسير عن هذا المبدأ باستناده إلى لعبة الشطرنج التي لا تحتاج دراسة قواعدها إلى البحث في أصولها[20].

وفي نفس الاتجاه يتبنى ل. هيالمسلف L. Hjelmslev مبدأ المحايثة ليؤكد على ضرورة استبعاد الوقائع غير اللسانية من عملية الوصف والنظر إلى موضوع اللسانيات باعتباره شكلا[21]. انطلاقا من هذا التحديد الذي يشكل قفزة نوعية في الدراسات اللسانية، سيعمد غريماس إلى صياغة مبدأ المحايثة في البحوث السيميائية وفق منظورين. يبنى المنظور الأول على مقولة التصديق (véridiction) المتمفصلة إلى محوري المحايثة (الكينونة) والتجلي (الظاهر).

تتفرع محصلة هذه الثنائية الأساسية ـ في مرتبة أعلى ـ إلى أربع مقولات تظهر في المربع التصديقي على النحو الآتي :

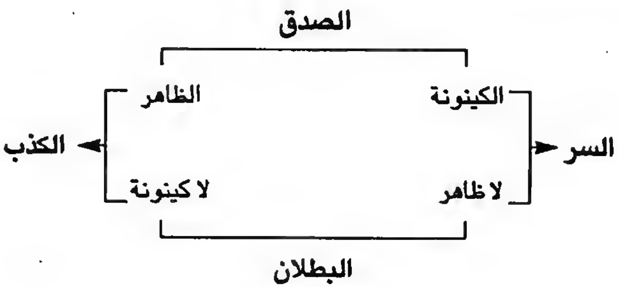

ويؤسس غريماس المنظور الثاني على المقابلة : المحايثة / السمو أين يمكن أن تسخر على الرسم السردي لإبراز تباين موقعي الفاعل والمرسل [22].

2. 3 مبدأ الاختلاف

إن وصف الأشكال الداخلية لدلالة النص يرتكز على مبدأ الاختلاف (différence) الذي أرسى قواعده ف. د. سوسير واستعمله للدلالة على أن المفاهيم المتباينة تكون معرفة ليس بشكل إيجابي من مضمونها وإنما بشكل سلبي من علاقتها مع العناصر الأخرى للنظام [23].

وقد تمثل غريماس هذا المبدأ داخل تصور جديد يقتضي فيه الاقتراب من المسألة الدلالية استيعاب الاختلافات المنتجة للمعنى دون الاكتراث لطبيعتها في إطار بنية تدرك بحضور عنصرين (على الأقل) تربطهما علاقة بطريقة أو بأخرى[24].

إن هذا التمثيل يرتكز أساسا على فرضية هيالمسلف والتي بمقتضاها يمكن فحص ماهية المضمون بالأدوات المنهجية المطبقة على صعيد التعبير. وعليه، فإن تمفصل العالم الدلالي إلى وحدات معنوية صغرى (السيمات) يناظر السمات المميزة لصعيد التعبير[25]. إن السيم بوصفه وحدة دلالية قاعدية لا يحقق وجوده إلا في علاقته بعنصر آخر. ولئن كانت وظيفته خلافية بالدرجة الأولى، فإنه يستحيل أن يدرك خارج إطار البنية. وتتمثل هذه الوظيفة مثلا بخصوص الليكسمين «ولد» و«بنت» في /الذكورة/ (س$_1$) و/ الأنوثة/ (س$_2$) ومحور الجنس (س). وتنضوي داخل نظام تحكمه علاقات التقابل (بين س$_1$ وس$_2$) والتدرج.

(س$_1$ ⟵ س، س$_2$ ⟵ س).

يمكن أن ندرك بدقة مفهوم السيم من خلال الليكسيمات المثبتة في الجدول الآتي :

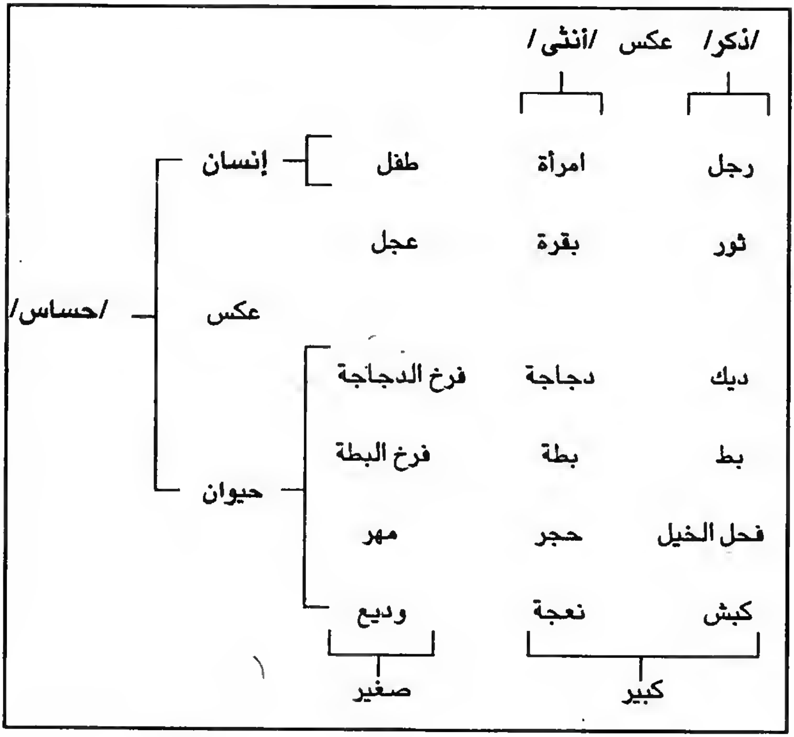

في هذا الجدول، إذا كان بإمكاننا الإقرار بوجود مقابلة بين / إنسان / و/ حيوان /، فلأنهما يملكان محورا دلاليا مشتركا (حساس) :

وقد وضح جيدا ابن رشد هذه المسألة في كتابه تلخيص كتاب المقولات عندما لاحظ، في معرض حديثه عن المتقابلات، أن : «كل متضادين، فإما أن يكونا في جنس واحد بعينه مثل الأبيض والأسود اللذين جنسهما القريب اللون ...»[26].

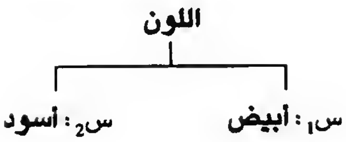

ومن الواضح أن كل جنس أو كل مقولة سيمية (س$_1$، س$_2$) (catégorie sémique)[27] يمكن أن يدخل في إطار إدماج موسع كعنصر مشكل لمقولة جديدة (س$_3$، س$_4$)[28] :

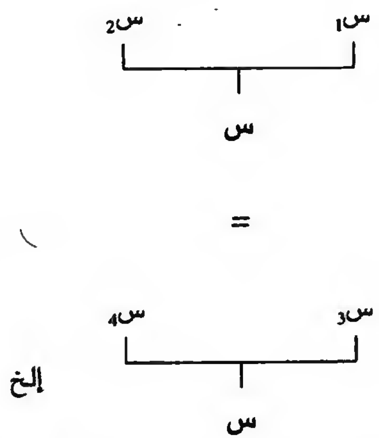

استنادا إلى الجدول أعلاه نحصل على التفريعات السيمية الآتية :

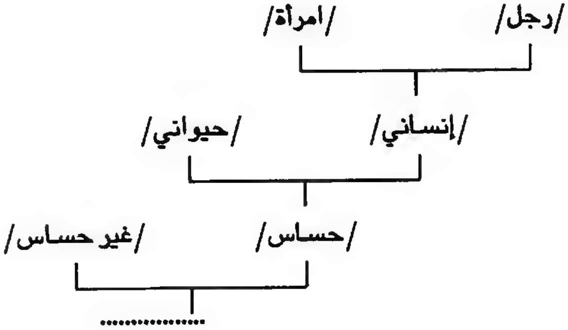

إذا دققنا النظر في هذه المقولات السيمية المبنية على الوظيفة التقابلية والخلافية للسيم[29]، ندرك جيدا أنها تستمد وجودها من الوصف البنائي (description structurelle) الذي يهدف إلى تأطير عنصري العلاقة، من جهة، والمضمون، من جهة أخرى :

" A/ est en relation (s) avec /B"

"(A) في علاقة (د) ب /B" [30]

فتاة ع (جنس) صبي

فتاة (أنوثة) ع صبي (ذكورة)

أنوثة /عكس/ ذكورة

س$_1$ عكس س$_2$

حتى ندرك المظهر الاتصالي بين س$_1$ وس$_2$، ينبغي أن نرقى إلى صعيد أعلى ـ من الناحية التدرجية ـ، يعني الصعيد المطوق للمقولة السيمية المحتوية على الذكورة والأنوثة. ونحصل في الأخير على /الجنس/ المعتبر كمقولة سيمية تتمفصل إلى سيمين متقابلين يحددان البنية المعنوية الصغرى. وتجسد، من هذا المنطلق، لعبة الخلافات التي تحكم الدلالة، نظاما من العلاقات :

ـ علاقة التقابل : س$_1$ عكس س$_2$: إنها علاقة قائمة بين السيمين.

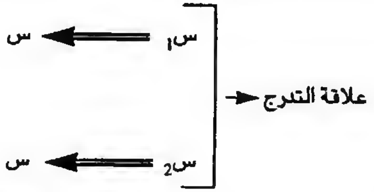

وهي علاقة تقوم بين س$_1$ وس$_2$ (الجنس) باعتباره مقولة سيمية تُمفصلُ س$_1$ وس$_2$. يمكن أن نمثل نظام العلاقات (التقابل والتدرج) في مربع سيميائي يعكس الدورة الدلالية العادية المتموضعة في المستوى العميق. سنحصر في

البداية التنظيم العام للمربع ونقدم خصائصه الشكلية على نحو ما أثبتها أ. ج. غريماس في كتابة علم الدلالة البنيوي.

2. 3. 1 المربع السيميائي

إذ سلمنا بأن الدلالة د هي في الواقع تجليات لعالم دال، يمكن بالمقابل أن نتصور دَ متسما بغياب مطلق للمعنى ونقيضا لـ د. وإذا افترضنا أن المحور الدلالي د يتمفصل على مستوى شكل المضمون إلى سيمين متضادين (contraires) :

د$_{1}$ -------------- د$_{2}$

فإن كل واحد من هذين السيمين يحيل على نقيضه (contradictoire) :

دَ$_{1}$ -------------------- دَ$_{2}$

بناء على هذه الاستنتاجات، يمكن أن نصوغ المربع السيميائي في الشكل الآتي :

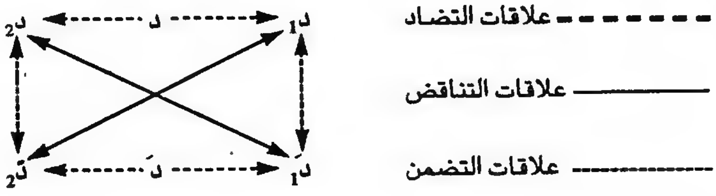

الخصائص الشكلية للمربع السيميائي

ينظم المربع السيميائي علاقات متنوعة تتوزع على النحو الآتي:

- العلاقات التدرجية : تقوم العلاقة الأولى بين : د$_{1}$، د$_{2}$ ود. وتشمل الثانية :

- العلاقات المقولاتية :

* علاقات التناقض : تقوم العلاقة الأولى بين د ودَ. وعلى المستوى الأدنى من الناحية التدرجية، تقوم علاقة ثانية بين د$_{1}$ ودَ$_{1}$ وبين د$_{2}$ ودَ$_{2}$. ومن الواضح

أن عملية النفي (opération de négation) هي التي تحقق الانتقال من د$_1$ إلى دَ$_1$، ومن د$_2$ إلى دَ$_2$، وتنبني أساسا على الاختيار بين واحد من العنصرين.

* علاقات التضمن: تربط دَ$_1$ بـ د$_2$ ودَ$_2$ بـ د$_1$، وتتولد بشكل طبيعي من عملية النفي السابقة. يتضمن نفي دَ$_1$ تثبيت د$_2$.

بناء على هذه المعطيات النظرية، تتجسد، على سبيل المثال، الدورة الدلالية للمحلل والمحرم في شهر رمضان على النحو الآتي [31] :

محلل	**محرم**
عمل	أكل
تفكير	شرب
تحرك	مجامعة الزوجة
	تدخين
لا محرم	**لا محلل**
الشرب سهوا	النوم كل النهار
الأكل سهوا	التوقف عن العمل

وقيد غريماس Greimas في دراسته لعالم برنانوس [32] (univers de Bernanos) حركة دلالية أولى موجهة على النحو الآتي:

حياة ← رفض ← لا حياة ← خضوع ← موت

(س$_1$) (سَ$_1$) (س$_2$)

وقد لاحظ عملية ثانية مماثلة تنطلق هذه المرة من س$_2$ لتنتج وتثبت س$_1$ من خلال نفي سَ$_2$؛ مفرزة بذلك مسارا ثانيا:

موت ← تمرد ← لا موت ← قبول ← حياة

(س$_2$) (سَ$_2$) (س$_1$)

يشكل إحداث الترابط بين المسارين مربعا سيميائيا [ينبني أساسا على عمليات النفي والتثبيت] مؤطرا بذلك ست علاقات :

- التضاد : س$_1$ عكس س$_2$، $\overline{\text{س}}_1$ عكس $\overline{\text{س}}_2$.

- التناقض : س$_1$ عكس $\overline{\text{س}}_1$ وس$_2$ عكس $\overline{\text{س}}_2$.

- التضمن : $\overline{\text{س}}_1$ عكس س$_2$ و$\overline{\text{س}}_2$ عكس س$_1$.

ويلحق غريماس Greimas بعد ذلك مساري المربع ببعدين متميزين بالصدق والكذب. تأسيسا على هذا، يحتل عالم برنانوس الخصوصي مكانة متميزة في المربع السيميائي :

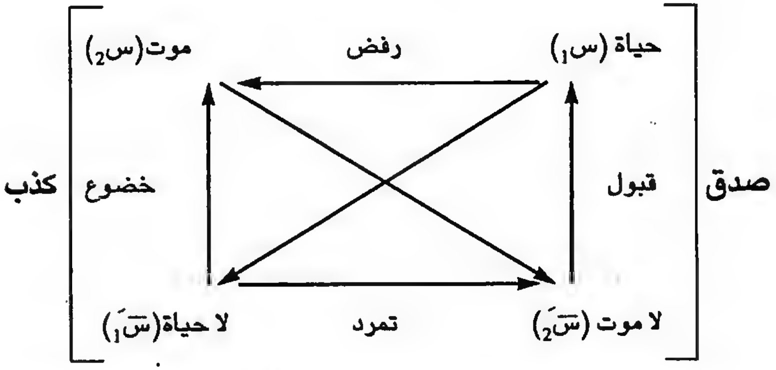

إذا دققنا النظر في بنية هذا النموذج، نلاحظ أن أ.ج. غريماس A. J. Greimas ارتكز في تحليله على عناصر ثلاثة من المربع (س$_1$، $\overline{\text{س}}_1$، س$_2$) ارتكازا يوحي لنا بأنه التقط النص في أبعاده الثلاثة :

(وضع أولي ← تحويل ← وضع نهائي) التقاطا ينسجم وطبيعة النموذج السردي.

من هنا، فإن السيميائية - في استنادها إلى القواعد اللسانية - تسعى إلى بناء الدلالة من داخل النص ومن مستويات محددة تحكمها بمجموعة من العلاقات والعمليات ندركها بكل وضوح في الصعيد العميق.

2. 3. 2 الملفوظ السردي

ولئن كان الانتقال من الصعيد العميق إلى الصعيد السطحي (المكون السردي والمكون الخطابي) مربوطا بالتحويل السردي الذي يحتوي الآليات التي تحكم الدورة الدلالية للنص (المربع السيميائي)، فإننا ملزمون بفحص الملفوظ السردي (énoncé narratif) من منطلقات لسانية تقودنا إلى فهم طبيعة عمل القواعد الخلفية اللسانية في النظرية السيميائية.

انطلق جوزيف كورتيس في تحديده للملفوظ الأولي[33] (énoncé élémentaire) من اقتراحات لوسيان تينيير L.Tesnière حول «بنية الجملة البسيطة» الذي لاحظ أن الفعل يحتل موقعا مركزيا في الجملة الفعلية ويعمل فيها على نحو ما يظهر ذلك في الشبكة الآتية :

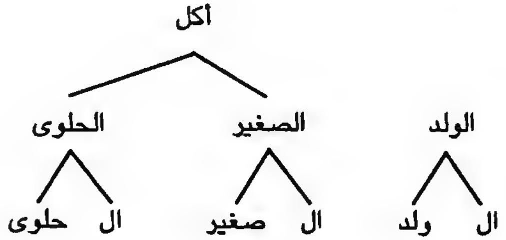

يعبر المفرع الفعلي عن مأساة صغيرة «وككل مأساة، فإنه يحتوي بالضرورة على حدث وفي أغلب الأحيان على متخاطبين وظروف. وإذا نقلنا الحدث، المتخاطبين والظروف من صعيد الواقع المأساوي إلى التركيب البنيوي، فإننا نحصل على الفعل والعوامل والظروف. ويعبر الفعل عن الحدث كما نلحظ ذلك في الفعل «ضرب» الواقع في الجملة «ضرب ألفريد برنار».

«العوامل هي الكائنات والأشياء التي تسهم في الحدث بأية صفة كانت وحتى بوصفها ممثلا صامتا ولو بشكل أكثر سلبية»[34]. وانطلاقا من هذه التحديدات اللسانية لموقع الفعل في الجملة، يتضح أن نواة الجملة الفعلية البسيطة هي الفعل (أو الوظيفة في المصطلحية المنطقية لريشنباخ) بوصفه علاقة بين العوامل.

استنادا إلى التشاكل الافتراضي (isomorphisme hypothétique) الموجود بين الجملة والخطاب، فإن الملفوظ الأولي، في النظرية السيميائية، يقوم أساسا على العلاقةالوظيفية (= و) بين العوامل (=ع). وإذا أدرجنا العامل/ الفاعل (ف) والموضوع (م) ضمن هذا المنظور، ستأخذ العلاقة الوظيفيةالشكل الآتي : و(ف، م). تأسيسا على هذا، تشتغل العلاقة في ملفوظ الحالة على هذا النحو :

و/ صلة (ف،م)

ف∨م   ف∧م

ويمكن أن نمثلها أيضا بالشكل الآتي : و/ تحويل (ف، م) [35].

ومن أجل دخول الفاعل في وصلة بموضوع القيمة عبر العملية التحويلية، ينبغي أن يكون ممتلكا للمؤهلات اللازمة للقيام بالفعل. وعليه، تعد الكفاءة شرطا أساسيا لتحقيق الأداء.

وهذا يقودنا إلى معالجة رافد آخر من الروافد اللسانية في النظرية السيميائيةالمتمثل في الزوج كفاءة/ أداء الذي يعد ضروريا لفهم آليات الرسم السردي.

2. 3. 3 الكفاءة والأداء

يمكن تحديد الكفاءة من المنظور الشومسكي بأنها معرفة الإنسان الضمنية بقواعد اللغة التي تقوده إلى لفظ وفهم عدد لا متناه من الجمل[36]. وبالإمكان التمييز بين المعرفة باللغة، من جهة، وبين استعمال اللغة الذي يسمى بالأداء الكلامي (performance)[37]، من جهة أخرى. فالأداء الكلامي هو الاستعمال الآني للغة في مساق معين يعود فيه المتكلم، بصورة طبيعية، إلى القواعد الكامنة ضمن كفاءته اللغوية كلما استعمل اللغة في مختلف ظروف التكلم.

ينبغي أن ننظر إلى قراءة غريماس لهذا المشروع على أنها تعديل جوهري في الاقتراب المنهجي من الظاهرة اللغوية في جانبها التواصلي واستيعاب الإرث اللساني (سوسير) وتمثله في مشروع يرتكز أساسا على المصطلحية الشومسكية التي يتبناها غريماس ويصهرها في مفهمة جديدة تولي أهمية للعناصر التي تدخل في تشكيل الكفاءة وللبعدين المعرفي والتداولي للأداء.

وعليه، إن الاقتراب المنهجي لشومسكي- على أهميته في فتح آفاق جديدة للبحث ـ لا يستنفد مفهوم الكفاءة، ذلك أنه يقتصر فقط على مضمونها بوصفه نظاما من القيود (contraintes). تأسيسا على الأداء، باعتباره فعلا منتجا للملفوظات، تتجسد الكفاءة ـ من منظور غريماس وفي بعض جوانبها- في معرفة الفعل. هذا الشيء الذي يجعل حدوث الفعل ممكنا. ولئن كانت معرفة الفعل حدثا بالقوة، فإنها مستقلة عن الفعل الذي تقوم عليه. بعبارة أخرى، إن الكفاءة اللسانية ليست شيئا لذاته، بل هي حالة خاصة لظاهرة أشمل تدخل في إطار إشكالية الفعل الإنساني وتؤسس الفاعل بوصفه عاملا (actant).

ضمن هذا التصور المنهجي ينظر غريماس إلى الأداء اللساني على أنه حالة خاصة ضمن إشكالية عامة تسخر لفهم النشاطات الإنسانية التي تأخذ أشكالا متنوعة في الخطابات.

ويميز غريماس على هذا الأساس بين نوعين من الأداءات : نوع يستهدف امتلاك قيم الجهة (valeurs modales)، ونوع آخر يتميز بامتلاك وإنتاج القيم الوصفية (valeurs descriptives).

حتى نوضح هذه المسألة بشيء من التفصيل، سنعرض الآن الصياغة الغريماسية للمشروع الشومسكي التي يمكن أن نفهم من خلالها التفاصيل الدقيقة التي يبني عليها غريماس المفاهيم الخاصة بمصطلحي الكفاءة والأداء من المنظور السيميائي.

استنادا إلى التمييز الدقيق الذي وضعه أ. ج. غريماس A. J. Greimas بين **معرفة الفعل والفعل**، يمكن أن نقول إن كل سلوك مبرر يفترض برنامجا سرديا مضمرا وكفاءة تضمن تنفيذه. تعتبر الكفاءة من هذا المنظور : «كفاءة جهة يمكن أن توصف كتنظيم متدرج الجهات»[38].

وتنبني هذه الكفاءة على جهات الإرادة الفعل (vouloir-faire)، وجوب الفعل (devoir-faire)، القدرة على الفعل (pouvoir-faire) ومعرفة الفعل (savoir-faire). حتى نوضح الجهات (modalités)[39] التي تدخل في تشكليها نقدم الأمثلة الآتية :

& «أوفر لك طريقة تربح بها أكثر».

β «أريد أن أوفر لك طريقة تربح بها أكثر».

δ «أستطيع أن أوفر لك طريقة تربح بها أكثر».

ε «يجب أن أوفر لك طريقة تربح بها أكثر».

تحتوي هذه الملفوظات على فاعل [ضمير المتكلم] وأداء [الفعل «أوفر»] مشتركين، وتختلف دلالاتها من ملفوظ إلى آخر اختلافا يقوم على طبيعة العلاقة التي تربط الفاعل بفعله. يأخذ الفعل [أوفر] المسند للفعل في β ، δ ، ε أشكالا مختلفة مبنية أساسا على الجهة التي تتحكم في الفعل على مستوى كفاءة الفاعل : يكون خاضعا تارة لتوجيه الإرادة (β) وتارة أخرى لجهة القدرة (δ) وأحيانا مسبوقا بجهة الواجب (ε). وتعد هذه السوابق بمثابة القوة الموجهة والمدوزنة للفعل[40]. وعليه، فإن أداء الفعل مشروط بهذه القوة التي أطلق عليها غريماس مصطلح موضوع الجهة (objet modal)[41]. في الأمثلة المذكورة أعلاه، تعتبر الأفعال /أريد/، /أستطيع/، / يجب/ مواضيع جهة يعد امتلاكها ضروريا لتنفيذ أي برنامج، وتتميز عن مواضيع القيمة في الملفوظ الآتي :

«أريد أن أوفر لك طريقة تربح بها أكثر».

يبدو ضمير المتكلم ممتلكا لموضوع الجهة : /الإرادة/ المتميز عن موضوع القيمة المستهدف /الربح/. يمكن أن نوضح هذا التمييز من خلال الرسم الآتي :

أريد	أن أوفر لك طريقة	تربح بها أكثر
موضوع الجهة ←	برنامج سردي مضمر ←	موضوع القيمة

يكتسي التمييز بين الموضوعين في النظرية السيميائية أهمية بالغة ؛ فهو يكشف عن آليات الكفاءة وأثرها في تحديد المسار الذي يأخذه فعل الفاعل المقترن بحقل حدثي معين، وطبيعتها من حيث إيجابيتها وسلبيتها، فهي لا تكون دائما إيجابية، قد تكون غير كافية أو سلبية على نحو ما يكون الأداء ناجحا أو فاشلا.

أشرنا في فقرة سابقة إلى أن الكفاءة يمكن أن توصف باعتبارها تنظيما متدرج الجهات. ومن الواضح أن هذه الجهات لا تتموضع في نفس المستوى ؛ ندلل على ذلك بالعلاقة الافتراضية التي تربط جهة بأخرى على نحو ما يظهر ذلك جليا في الجدول الآتي :

كفاءة		أداء
جهات مضمرة	جهات محينة	جهات محققة
/إرادة الفعل/ / وجوب الفعل/	/معرفة الفعل/ / قدرة الفعل/	/ماهية / /فعل/
تأسيس الفاعل	تأهيل الفاعل	تحقيق الفاعل

ـ جهات الإضمار : / إرادة الفعل/ و / وجوب الفعل /

هذه الجهات التي تسهم في تأسيس الفاعل تتأطر باللحظة التي يدرك فيها الفاعل أنه / **يجب** / أو / **يريد** / تنفيذ برنامج معطى. غير أن هذه القيم المدوزنة للفعل لا تأتي من العدم ؛ فهي تستمد حضورها من وجود مرسل تسند إليه مهمة تبليغها على نحو ما نلاحظ ذلك في الصياغة الإضمارية الآتية :

ف (ف$_2$) ⟸ (ف$_1$ ∪ م ج) ⟸ (ف$_1$ ∩ م ج) [42]

ويتم تبليغ مواضيع الجهة وفق إحدى الإمكانيتين :

ـ يتحقق التبليغ الانعكاسي (communication réfléchie) بإسناد دوري المرسل والفاعل إلى الممثل الواحد الذي يأخذ على عاتقه، من تلقاء نفسه وبعيدا عن أي ضغط أو تأثير، تنفيذ برنامج معطى.

ـ ويصدر التبليغ المتعدي (communication transitive) عن قوى فاعلة [43] في كفاءة الفاعل.

ـ جهات التحيين : / معرفة الفعل / و/ القدرة على الفعل/

تعتبر هذه الجهات امتدادا طبيعيا لجهات الإضمار وتحتل مكانة بارزة في صلب المسار السردي المسند إلى الفاعل. يبدو التحيين (actualisation) في هذا المساق مربوطا بقيمتين أساسيتين :

ـ **معرفة الفعل** : تتشكل هذه القيمة المتقدمة على الفعل من تراكم الأفعال والتجارب العديدة التي يكتسبها الفاعل على امتداد المحور الزمني اكتسابا يستمد منه قدرته على توقع وبرمجة العمليات الضرورية لتنفيذ برنامج معطى[44]. وتتموضع هذه القيمة على الصعيد المعرفي[45].

ـ **القدرة على الفعل** : تكشف هذه القيمة عن الطاقات التي يملكها الفاعل وعن استعداده : «لتنفيذ الأداء»[46].

ـ جهة التحقيق : الفعل

هذا الطور الذي يبرز الخفايا التي يضمرها كل فاعل في نص سردي معطى يعد من أدق الأطوار وأصعبها، ففيه يسقط الفاعل عناصر كفاءته على الأداء

الأساسي المحول للحالات، وفيه أيضا تختفي الأطراف المحفزة له (المرسل) [47] وتظهر الأطراف المضادة للفاعل (anti-sujet) والمعيقة لرغبته في تنفيذ برنامجه والساعية إلى زعزعة قواعده الاستراتيجية ؛ مواجهة ينشأ عنها الطابع الجدالي (caractère polémique) للقصة الذي تتم عبره التحويلات الأساسية وتنشأ في إطاره المواقع الاستراتيجية للعوامل ومواضيع القيمة وتنقلاتها من طرف إلى آخر وذلك تبعا لقوة هذا الطرف وضعف الطرف الآخر. ينبغي أن نميز في هذا السياق بين نوعين من التحويلات. يسعى الفاعل في النوع الأول إلى امتلاك قيمة الجهة [48]. ويرمي الفاعل في النوع الثاني إلى الدخول في وصلة بالقيم الوصفية [49] (valeurs descriptives).

ستقتصر معالجتنا للأداء على النوع الثاني. وحتى نوضح آلياته، سندرج ضمنه مواضيع القيمة التي بدونها تفقد القصة كل طابع جدالي.

ـ الأداء

يتفرع هذا النوع إلى أداءين [50] متمايزين. تظهر تجليات الأداء الأول في ملفوظ سردي وصلي (conjonctif) يعكس انتقال الفاعل من وضعية فصلة عن موضوع القيمة إلى وضعية وصلة به :

ف . ت (ف$_1$) ⟸ [(ف$_1$ ∪ م) ⟸ (ف$_1$ ∩ م)] [51]

ويتبدى الأداء الثاني من خلال ملفوظ سردي فصلي (disjonctif) يعبر عن انتقال الفاعل من وضعية وصلة بالموضوع إلى وضعية فصلة عنه :

ف . ت (ف$_1$) ⟸ [(ف$_1$ ∩ م] ⟸ (ف$_1$ ∪ م)]

يتحدد الموضوع في كلتا الحالتين في علاقته بالفاعل الواحد. يمكن أن نتساءل كيف يكون الأمر عندما تتصارع على الموضوع الواحد أطراف عديدة.

من الواضح أن الصياغة البسيطة لوضع أولي في نص سردي معطى تأخذ في أغلب الأحيان الشكل الآتي :

ف$_1$ ∪ م ∩ ف$_2$

غير أن هذا الوضع سرعان ما يتأزم بمجرد ظهور فاعل ثالث (ف$_3$) يسعى هو بدوره إلى الدخول في صراع مع هذا الطرف أو ذاك سعيا يترجم على الصعيد التركيبي بالملفوظ السردي المعقد (complexe) الآتي :

ف. ت (ف$_3$) ← [(ف$_1$ ∪ م ∩ ف$_2$) ← (ف$_1$ ∩ م ∪ ف$_2$)] [52]

يمكن أن نصوغ، تبعا للموقع الذي يحتله ف$_3$، أربع فرضيات [53] :

1 ـ ف$_3$ = ف$_1$

تولد هذه الوضعية الملفوظ الآتي :

ف. ت (ف$_3$ = ف$_1$) ← [(ف$_1$ ∪ م ∩ ف$_2$) ← (ف$_2$ ∩ م ∪ ف$_2$)]

يسند إلى الفاعل ف$_1$ في هذه العملية التحويلية دوران متمايزان. تتماهى تجليات الدور الأول في الممثل (acteur) بوصفه فاعل حالة منفصل عن موضوع القيمة في الوضع الأولي (ف$_1$ ∪ م) ومتصل به في الوضع النهائي (ف$_1$ ∩ م). يعكس الدور الثاني التحول التلقائي لـ ف$_1$ إلى فاعل منفذ (sujet opérateur) يعمل وينجح (على، في) تحقيق رغبته الشخصية في تملك الموضوع. (appropriation) يستعمل التملك المعتبر كعملية انعكاسية (réfléchie) للدلالة على حيازة الفاعل للموضوع «بفعله الخالص» [54].

حتى نوضح بدقة التمييز بين الدورين المسندين إلى ف$_1$ نفرع الصياغة السابقة إلى الملفوظين الآتيين :

ملفوظ الحالة		ملفوظ الفعل
(فاعل الحالة ـ موضوع القيمة)		(فعل الفاعل المنفذ)
فصلة ↓	وصلة ↓	تحويلي اتصالي ↓

(ف$_1$ ∪ م)   (ف$_1$ ∩ م)   ف. ت (ف$_1$) ← [(ف$_1$ ∪ م ∩ ف$_2$) ← (ف$_1$ ∩ م ∪ ف$_2$)]

2ـ ف$_3$ ≠ ف$_1$

تفرز هذه الوضعية الملفوظ الآتي :

ف. ت (ف$_3$) ⟵ [(ف$_1$ ∪ م ⟵ ف$_2$) ⟵ (ف$_1$ ∩ م ∪ ف$_2$)]

في هذه الصياغة، يختلف ف$_3$ عن ف$_1$ من حيث الدور المسند إلى كل واحد منهما. ف$_3$ بوصفه فاعلا منفذا يقدم خدمة لـ ف$_1$ ويساعده على الدخول في وصلة بموضوع القيمة الذي كان في حيازة ف$_2$. ويمثل هذا التحويل المتعدي (transitif) في النظرية السيميائية /المنح/ (attribution) الذي يعكس التحقيق الممارس في لحظة ما من مسار سردي معطى.

3ـ ف$_3$ = ف$_2$

نحصل في هذه الحالة على الصياغة الآتية :

ف. ت (ف$_3$) ⟵ [(ف$_1$ ∪ م ∩ ف$_2$) ⟵ (ف$_1$ ∩ م ∪ ف$_2$)]

نسجل هنا تنازل (renonciation) الفاعل التلقائي (ف$_2$) عن موضوع القيمة للفاعل ف$_1$.

4ـ ف$_3$ ≠ ف$_2$ و[ف$_3$ = ف$_1$]

ينتج عن هذه الفرضية الملفوظ الآتي :

ف. ت (ف$_3$) ⟵ [(ف$_1$ ∪ م ∩ ف$_2$) ⟵ (ف$_1$ ∩ م ∪ ف$_2$)]

يمارس الفاعل ف$_3$ في هذه الصياغة عملية سلب (dépossession) على ف$_2$ تتوج بحيازته على موضوع القيمة.

من الواضح أن هذه التحويلات الأربعة يمكن أن تمثل من المنظور النظمي (syntagmatique) في الرسم الآتي[55] :

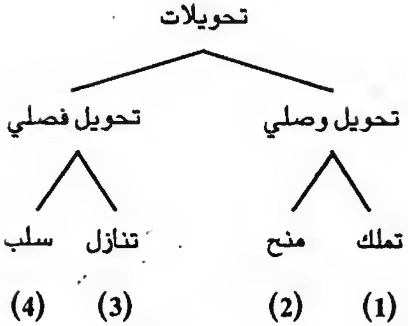

هكذا نكون قد أتينا على تطويق جميع الحالات التي يتم فيها تمرير موضوع القيمة.

بقي أن نلاحظ أن هذه الحالات تستقطب برامج سردية تشرك في آن واحد فاعلين بحيث يناسب كل امتلاك (acquisition) فقدانا (privation) في البرنامج الموازي ؛ ويؤدي في نهاية الأمر إلى تحقيق ملازمة (concomitance) بين : « التملك والسلب
المنح والتنازل»[56].

تحيل على المهمة (épreuve) باعتبارهما تحويلا محدثا لـ التملك والسلب، والهبة (don) المنتجة للمنح والتنازل[57] :

	امتلاك	فقدان
مهمة	تملك	سلب
هبة	منح	تنازل

بناء على هذه المعطيات واستنادا إلى الرسمين أعلاه يمكن أن نصوغ الجدول الآتي :

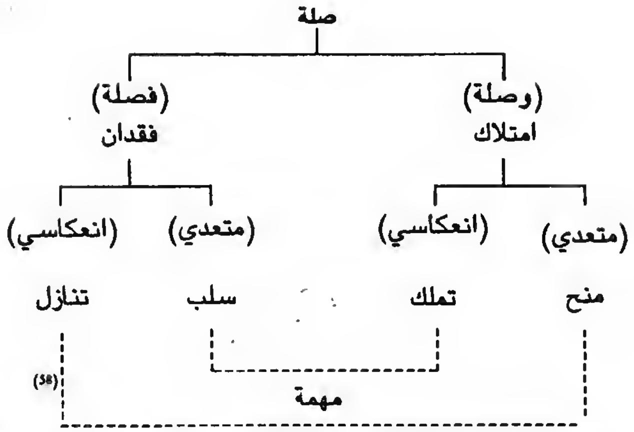

إذا دققنا النظر في هذا الجدول، سيتضح أن الهبة تنبني على برنامجين متزامنين يدعو الواحد منهما الآخر بحيث تربطهما علاقة افتراض متبادلة :

ف ت {ف$_1$ ⟵ (ف$_1$ $\cap$ م)} = برنامج المنح

ف ت {ف$_1$ ⟵ (ف$_1$ $\cup$ م)} = برنامج التنازل

من الواضح أن هذه النتيجة يمكن أن تسحب على المهمة لتفرز البرنامجين الآتيين :

ف ت {ف$_1$ ⟵ (ف$_2$ $\cup$ م)} = برنامج السلب

ف ت {ف$_1$ ⟵ (ف$_1$ $\cap$ م)} = برنامج التملك

تقودنا معالجة التحويلات المقترنة بالموضوع الواحد إلى النظر في بنية التبادل (structure de l'échange) المبنية على موضوعين متمايزين يحيلان على هبتين مختلفتين. لا يتم التبادل إلاّ إذا تحققت المعادلة بين الموضوعين :

م$_1$ $\equiv$ م$_2$ [59].

تفترض هذه المعادلة معرفة سابقة تخص الاتفاق بين الطرفين حول القيم المتبادلة وقناعة كل واحد منهما بأنه لم يُخدع ولم يخدع أحدهما الآخر وأن هذا التبادل المتوازن يقوم أساسا على ثقة متبادلة. ينبني هذا التبادل إذن على

عقد ائتماني[60] (contrat fiduciaire) ضمني أو صريح يتم بين طرفين. يمكن أن تأخذ هذه البنية الصياغة الآتية :

ف ت1[(ف1 ⟸ (ف2 ∩ م1)] ف ت2 [ف2 ⟸ (ف1 ∩ م2)]

ينبغي أن نشير في النهاية إلى حالة خاصة يكون فيها المنح غير مترابط[61] مع التنازل ؛ وعوض أن يأخذ التحويل الشكل الآتي :

(ف1 ∩ م ∪ ف2) ⟸ (ف1 ∪ م ∩ ف2)

فإنه يحمل الصياغة الآتية :

(ف1 ∩ م ∪ ف2) ⟸ (ف1 ∩ م ∩ ف2)

ندلل على هذه الحالة بالمعرفة التي نبلغها ولا نفقدها.

حاولنا أن نقدم في هذا القسم تصوراً عاما عن بعض المنطلقات اللسانية للنظرية السيميائية عملنا من خلالها على توجيه القارئ العربي نحو أهمّ أصولها، وإظهار حدودها وإبراز إشكاليتها. أردنا بهذا الإسهام المتواضع أن نثير فقط السؤال حول جوهر الممارسة السيميائية، والقضايا اللسانية الأساسية التي تشكل القواعد الخلفية للبحث السيميائي المعاصر.

وسننتقل الآن إلى أرضية بحثية أخرى كان لها عميق الأثر في إثراء الصعيد السردي للمشروع الغريماسي. ضبطنا في البداية بشكل شمولي التوجه الشكلاني الروسي العام في الممارسة النقدية، وتتبعنا في أثناء التحليل النموذج البروبي (modèle proppien)، فقيدنا الانتقادات التي وجهها إليه ـ غريماس وأسس عليها ـ بناء على هذا النموذج المتخذ كنقطة انطلاقة لبحوث السيميائيين ـ الرسم السردي (schéma narratif) الذي يعد سنداً مهما لفهم تنظيم الخطابات السردية.

3. الأصول الشكلانية للنظرية السيميائية

لا نستطيع أن نرصد الأصول العلمية للبحث السيميائي بقطع النظر عن المظهر التنظيري العام لبحوث الشكلانيين الروس التي ظهرت خلال الحقبة الممتدة من 1915 إلى 1930 والمتميزة بمبدأ أساسي قائم على معارضتهم

للمناهج التقليدية ودراسة الأدب بوصفه مجموعة شكلية تحكمها قوانين خاصة مع التركيز على العناصر النصية والعلاقات المتبادلة بينها وعلى الوظيفة التي تؤديها في مجمل النص.

ولئن اعتبر النص «معطى منفصلا عن موقع القارئ ومعزولاً عن السياق التاريخي الذي هو جزء منه»[62] فإنه «مبني كلية ومجموعة مادته منظمة»[63].

إن هذا التنظيم الذي ينصهر في النظام الأدبي لا يحيل على المرجع ؛ فالأدب بوصفه نظاما متجانس العناصر لا يعكس التعبير المباشر لمشاعر الكاتب ولايشكل، في جميع الحالات، إسقاطاً لتجربته السيكولوجية. وقد حظيت مسألة الأشكال الأدبية ـ ضمن هذا الإطار المنهجي العام ـ باهتمام خاص. ويُعد فلادمير بروب Vladimir Propp الباحث الوحيد في الاتجاه الشكلاني الذي تعمق في دراسة الحكاية تعمقاً مكنه من استخراج بنيتها. ويعتبر كتابه الموسوم مورفولوجية الحكاية (*Morphologie du conte*) من الكتب الحاسمة في تطور الدراسات البنيوية والسيميائية، والنموذج الأكثر نضجاً في بحوث الشكلانيين.

نشير في هذا المساق إلى أن بروب لم يرض بهذه التسمية ويظهر ذلك واضحاً في المساجلة التي تمت بينه وبين كلود ليفي ستروس[64] وفي غيابه عن تأسيس مركزين مهمين للنشاطات الشكلانية الروسية : حلقة اللسانيات بموسكو (1915) ومجتمع دراسات الكلام الشعري (OPIAZ) لبيتر سبورغ (1916). ويعتبر نفسه بنيويا قبل التتويج النهائي للبنيوية. وهذا يدل دلالة قاطعة على استقلالية بروب الشخصية بالنسبة إلى تأثيرات جماعة الشكلانيين. ومع ذلك فإن هذه الاستقلالية لم تمنعه من تبني مبادئ علمية عامة تتوافق مع التوجهات الفكرية للشكلانيين الذين أرسوا قواعد علمية للممارسة النقدية (الفصل بين الموضوع والمنهج).

إن الدراسة الاستقصائية التي قام بها ف. بروب قادته إلى الإقرار بأن عدد الوظائف التي تتحكم في الحكايات الروسية تبلغ إحدى وثلاثين. ليس شرطا أن ترد هذه الوظائف التي تخضع لنظام ثابت. ويرى بروب أن تحديد الوظيفة ينبغي أن يكون بمثابة المحصلة لاعتبارين أساسيين. أولهما : تحديد الوظيفة

انطلاقا من الفعل بصرف النظر عن الشخصية المنفذة له. ثانيهما : ولئن وجب فهم الفعل في السياق السردي، فإن دلالة أية وظيفة معطاة ينبغي أن تستمد من تطور الحبكة. على هذا الأساس، تعرف الوظيفة من المنظور البروبي ب : «فعل الشخصية المحدد من حيث دلالته في تطور الحبكة»[65]. إن تحليل الحكاية، ضمن هذا المنظور، مرهون بوصفها وفقا لأجزاء محتواها وعلاقة هذه الأجزاء بعضها ببعض ثم علاقتها بالمجموع.

يستمد النموذج الوظائفي البروبي قوته الإجرائية من مرونته وقابلية تطبيقه على النصوص السردية. وتكمن أهميته المنهجية وفائدته العلمية في قدرته على إبراز مبدأ الاختلاف على طول الخط السردي.

استنادا إلى هذا النموذج، يمكن أن نقول إن الحكاية تُبرز ـ ولو تحت أشكال متنوعة ـ تمثيلا عامليا مشروطا بطبيعة العلاقات التي تقوم بين الشخصيات والوظائف المسندة إليها في صلب القصة. وتبدو تجليات هذا التمثيل ـ في بعض جوانبها ـ واضحة في الرسم العاملي لِ أ. ج. غريماس[66] :

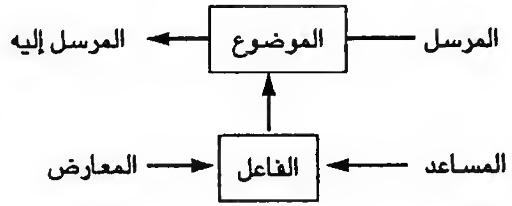

من الواضح أن ف. بروب أشار من خلال عرضه للوظائف إلى موضوع الرغبة وذلك في أثناء حديثه عن الافتقار (manque)[67] والانتقال إلى الهناك (...) الذي يمكن البطل من استرجاع الموضوع المفقود[68]. وبالرغم من أهمية هذا المنظور المنهجي في تطوير الأدوات الإجرائية الكشفية للتحليل السيميائي، فإنه أهمل الشروط المحققة لوجود الموضوع (objet)، ذلك أن طرح المسألة بهذا الشكل يحمل على الاعتقاد بأن القيمة تنصهر في الموضوع. غير أن العملية لا تتم بهذه البساطة كما لاحظ ذلك غريماس. إذ يستحيل أن يفهم الموضوع بقطع النظر عن القيمة المستثمرة فيه، فعندما يرغب الشخص في شراء سيارة فهو لا يريد

امتلاكها كموضوع بل كوسيلة سريعة للتنقل. وتمتزج هذه الرغبة في الشراء بالحظوة الاجتماعية أو الإحساس الحميمي بالقوة. يبدو واضحا من خلال هذا المثال أن الموضوع ليس في الواقع إلاّ ذريعة، فضاء تركيبيا توظف فيه قيم[69] يرغب العامل/ الفاعل (actant-sujet) في تحقيقها. تعكس هذه الرغبة ـ المتولدة أصلا من فعل المرسل (destinateur) الممارس على الفاعل ـ ظهور حالة افتقار (état de manque) تتسبب في فقدان التوازن على مستوى الوضع الأولي (état initial). يتمحور تعويض الافتقار حول العلاقة فاعل/ موضوع التي يحددها ملفوظ حالة (énoncé d'état) يجسد وضعية كل عنصر في علاقته بالعنصر الآخر عبر الصلة (jonction) المتمفصلة من المنظور السيمي (sémique) إلى عنصرين متناقضين :

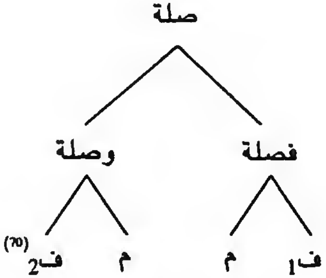

يبين هذا الرسم وجود فاعلين [ف1، ف2]. يحدد كل واحد لنفسه، على محور الرغبة، موضوع قيمة (م) (objet de valeur) يريد امتلاكه. يتميز الوضع النهائي بدخول ف1 وف2، وبشكل آني، في فصلة ووصلة مع م :

(ف1 ∪ م) X (ف2 ∩ م).[71]

يهدف تحليل البنية العاملية إلى الكشف عن الوضعية التركيبية (position syntaxique) لكل واحد من العوامل الموزعة على المساحة النصية. ويبدو تحديد هذه الوضعيات ضروريا لكونه يضبط العلاقات التي تنظم العوامل والتي يمكن أن تكون علاقة رغبة كالتي تربط بين الفاعل وموضوع الرغبة (objet du désir) أو علاقة معاكسة كالتي تربطه بالمعارض (opposant) الذي يحاول أن يحول دونه والموضوع أو علاقة متجانسة تتم

على الصعيد المعرفي/ الإقناعي (cognitif/persuasif) وتشمل المرسل والفاعل. وتجد هذه العلاقات نهايتها في المرسل إليه (destinataire) ـ المستفيد الأول من عملية التحري (quête) ـ الذي يحتل موقعا واضحا في الرسم الآتي:

مرسل ← موضوع ← مرسل إليه

↑

فاعل

تتبدى العلاقة مرسل / مرسل إليه بمفعولاتها في محور الرغبة (فاعل/ موضوع) على محور التواصل:

مرسل ـــ موضوع ـــ ← مرسل إليه

تحكم المزدوجة: مرسل / مرسل إليه علاقة توجيهية[72] (relation d'orientation) تعطى فيها الأولوية للمرسل. وتتولد التجليات الدلالية في النص من العلاقات المؤطرة للرسم السردي على نحو ما يظهر ذلك مثلا في الصياغة للإيديولوجية الماركسية على مستوى المناضل انطلاقا من رغبته في خدمة الإنسان[73].

التاريخ ـــ مجتمع بدون طبقات ـــ ← الإنسانية

↑

الطبقة العمالية ← الإنسان → الطبقة البرجوازية

ينبغي أن نلاحظ في هذا المساق أن العلاقة بين العامل (actant) والممثل (acteur) مزدوجة. لو افترضنا أن تجليات العامل (ع$_1$) تتحقق في النص عبر ممثلين (م$_1$، م$_2$، م$_3$) فإن العكس ممكن أيضا؛ قد يتفرع ممثل واحد (م$_1$) إلى عوامل متميزة: (ع$_1$، ع$_2$، ع$_3$)[74]:

إن الفعالية الإجرائية لهذا التمييز تكمن في أنه يأخذ بعين الاعتبار تجليات العناصر الفاعلة في البنية العاملية للنص السردي، بنية تأخذ الشكل الآتي انطلاقا من الرسم السردي :

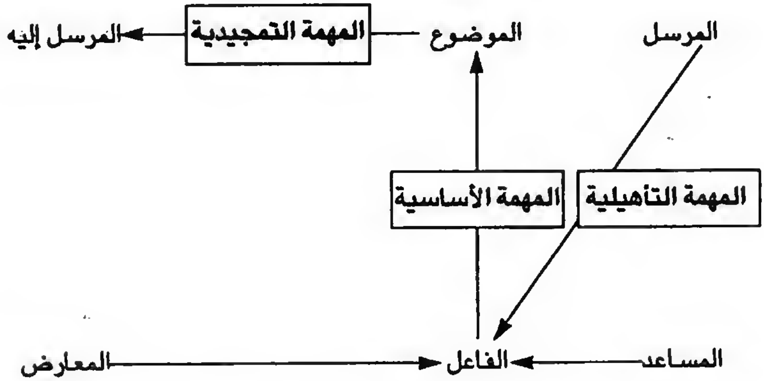

يكتسب الفاعل، خلال المهمة التأهيلية، الكفاءة وطاقة الإنجاز التي تمكنه في المهمة الأساسية من تطويق دائرة الصراع ؛ تحقيق الموضوع وتعويض الافتقار. ويقوده نشاطه السردي في النهاية إلى المهمة التمجيدية التي يقع فيها التعرف على البطل وتقويم (sanction) مساره طبقا للالتزام الذي أخذه على نفسه.

من خلال قراءتنا لهذا الرسم لا نلقى صعوبة في إبراز الدعم المنهجي الذي قدمه ف. بروب للمقاربة السيميائية والمتمثل في كشفه عن هذه المهمات الثلاث (تأهيلية ـ أساسية ـ تمجيدية) التي تشكل نموذجا «لا تكمن قيمته في عمق التحاليل التي تدعمه ولا في دقة صياغاته بل في نجاعة فعالية استفزازه وقدرته

على إثارة الفرضيات»[75]. ويصوغ غريماس انطلاقا من هذا النموذج نتيجة مغايرة للمسلمة البروبية التي تحملنا على الاعتقاد بأن الحكاية مبنية على التتابع الكرونولوجي للمهمات، ذلك أن التمفصل المنطقي للبناء السردي يجري مجرى التتابع المعكوس. حتى ولو تعاقبت المهمات الثلاث الواحدة تلو الأخرى على طول الخط الزمني، فإنه لا توجد أية ضرورة منطقية تُعلّلُ التحاق المهمة التأهيلية بالمهمة الحاسمة وهذه بالمهمة الممجدة. وهناك أمثلة يمكن أن تضرب على الأكفاء الذين لا ينتقلون أبدا إلى الفعل، والأعمال الجديرة بالتقدير التي لا يعترف بقيمتها أبداً. وعلى هذا الأساس يرى غريماس أن القراءة المعكوسة كفيلة بتأسيس ترتيب منطقي من الافتراضات. تفترض المهمة التمجيدية المهمة الحاسمة التي تفترض بدورها المهمة التأهيلية : حتى يتمكن البطل من الانتقال إلى الفعل، ينبغي أن يملك المؤهلات الضرورية لذلك (الكفاءة) [76].

بناء على هذه الملاحظات التي قيدها غريماس على النموذج البروبي، يتبنى ج. كورتيس Joseph Courtès في نفس الاتجاه رسماً سرديا مبنيا أساسا على الافتراض المنطقي المعكوس. فالتقويم (أو المهمة التمجيدية) لا يفترض فقط فاعلاً أدى فعلا (المهمة الحاسمة) سيحاسب عليه ولكنه يفترض أيضا فاعلا آخر يقوم بعملية تقويم ترتكز على العلاقة التعاقدية (relation contractuelle) الموجودة بين المرسل / المرسل إليه / الفاعل ؛ إذ بناء على العقد المبرم بينهما وطبقا لالتزام الفاعل، فإن هذا الأخير يتلقى في نهاية المسار الجزاء الجدير به. لابد أن نشير إلى أن هذه اللحظة السردية (عملية التقويم) مرهونة في وجودها بعملية الإيعاز (manipulation) التي يمارسها المرسل على الفاعل.

استنادا إلى النموذج البروبي والتعديلات المنهجية التي أجراها عليه أ. ج. غريماس وج. كورتيس، نحصل في نهاية التحليل على بعدين أساسيين في النظرية السيميائية : بعد معرفي يتأسس عليه الإيعاز والتقويم، وبعد تداولي ندركه من خلال عمل الفاعل.

إن العقد المبرم بين العاملين المرسل / الفاعل يقضي بضرورة الاحتكام إلى نظام القيم (النظام الخلاقي système axiologique) الذي يعبأ الفاعل على

أساسه ويقوم عمله ويتم التحقق من تنفيذ العقد. يمكن أن يأخذ الرسم السردي، انطلاقا من هذه الملاحظات التي قدمها كورتيس[77]، الشكل الآتي :

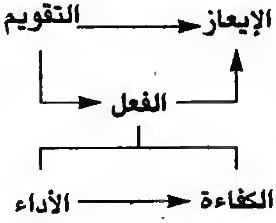

يفترض التقويم فعلا يحتل الصدارة في الرسم السردي ويحدث تفاعلات تمس العلاقات العاملية. يتمفصل هذا الفعل إلى كفاءة وأداء ويحيل على الإيعاز (بوصفه هيئة حاسمة في تحويل الكفاءة) الذي يأخذ أشكالا مختلفة تنصهر في التأثير الذي يمارسه المرسل في الفاعل في سبيل إقناعه بتنفيذ برنامج معطى. وقد ينحو الموعز (manipulateur) منحى آخر كأن يلعب على أوتار مؤهلات الفاعل فيثيره أو يغريه إثارة وإغراء مقترنين بحكم سلبي (لا تملك القدرة على ...) أو إيجابي (إنك تملك القدرة على ...) على جهة من جهات كفاءته.

بقي أن نشير في النهاية إلى أن تعريف بروب للوظيفة لا ينطبق على الافتقار الذي يحيل على الحالة. ولئن كانت الوظيفة تدل على الفعل، فإن كل فعل، من منظور غريماس، يمكن أن يمثل بمسند (أو وظيفة بمعنى العلاقة في بعدها المنطقي) تمثيلا يضم إليه العوامل. وعليه، تأخذ الوظيفة البروبية شكل الملفوظ السردي الآتي :

م . س = و (ع1، ع2 ...) —[78].

وتأسيسا على هذا، يتحدد الملفوظ الأولي في السيميائية السردية بوصفه «علاقة / وظيفة بين العوامل»[79].

حاولنا أن نثير في هذا البحث، بعض القضايا اللسانية والشكلانية على نحو يفضي بنا إلى رؤية تحليلية كاشفة عن مجموعة من القواعد الخلفية

للنظرية السيميائية. وفي سبيل تحقيق هذا الهدف، وقفنا عند بعض المصطلحات الأساسية في التحليل السيميائي وتتبعنا أصولها فضبطنا مفاهيمها في حقولها الأصلية وراعينا الطريقة التي تم بها نقلها. ولئن حاولنا فيما تقدم كشف النقاب عن بعض منحدرات السيميائية، فإن عملنا يبقى منقوصا ما لم نتول إنجاز بحوث جماعية في إطار فرق بحث تكون مهمتها الأساسية معاينة الوضع المصطلحي والخروج باتفاق مبدئي حول حد أدنى من المصطلحات المسخرة لتأسيس خطاب علمي جديد بهذا الاسم.

ثبت المصطلحات

أ

اختلاف	différence
أداء	performance
إرادة	vouloir
إضمار	virtualisation
افتقار	manque
انعكاسي	réflexif
إيعاز	manipulation

ب

برنامج	programme
بنائي	structurel
بنية	structure
بنيوي	structural

ت

تجليات دلالية	manifestation sémantique
تحري	quête
تحويل	transformation
تحيين	actualisation
تداولي	pragmatique
تدرج	hiérarchie
تضاد	contrariété
تضمن	implication
تعبير	expression

تقابل	opposition
تقويم	sanction
تملك	appropriation
تنازل	renonciation
تناقض	contradiction

ج

جدالي	polémique

خ

خلاقي	axiologique

س

سردي	narratif
سلب	dépossession
سيم	sème
سيميائية	sémiotique
سيميائي	sémiotique

ش

شكلاني	formaliste
شكل	forme

ص

صعيد	plan
صلة	jonction

ظ

ظاهر	paraître

ع

actant	عامل
contrat	عقد
relation	علاقة
relation d'orientation	علاقة توجيهية
sémantique	علم الدلالة
opération	عملية
profond	عميق
élément	عنصر

ف

sujet	فاعل
sujet opérateur	فاعل منفذ
disjonction	فصلة
disjonctif	فصلي

ق

mesurable	قابل للقياس
observable	قابل للملاحظة
pouvoir-faire	القدرة على الفعل
valeurs modales	قيم جهة
valeurs descriptives	قيم وصفية
contraintes	قيود

ك

compétence	كفاءة
être	كينونة

ل

لسانيات	linguistique
لسانية	linguistique
ليكسيم	léxème

م

متعدي	transitif
محايثة	Immanence
مرسل	destinateur
مرسل إليه	destinataire
مساعد	adjuvant
مضمون	contenu
معرفة الفعل	Savoir-faire
معرفي	cognitif
معقد	complexe
مقولة	catégorie
مقولة التصديق	catégorie de véridiction
مكون خطابي	composante discursive
مكون سردي	composante narrative
ملفوظ أولي	énoncé élémentaire
ملفوظ سردي	énoncé narratif
منح	attribution
مهمة أساسية	épreuve fondamentale
مهمة تأهيلية	épreuve qualifiante
مهمة تمجيدية	épreuve glorifiante
مهمة	épreuve
مورفولوجية	morphologie
موضوع الجهة	objet modal

ن

système	نظام
théorie des modalités	نظرية الجهات
syntagmatique	نظمي
négation	نفي
modèle proppien	نموذج بروبي

هـ

don	هبة

و

devoir-faire	وجوب الفعل
description	وصف
conjonction	وصلة
conjonctif	وصلي
situation initiale	وضع أولي
situation finale	وضع نهائي
fonction	وظيفة
fonctionnel	وظيفي

الإحالات

1 - Anne Henault, *Histoire de la sémiotique*, P. U. F., Paris, 1992.

2 - *Ibid.*, pp. 3-8.

3 - A. J. Greimas, *Du Sens*, Paris, 1970. et *Du sens II*, Seuil, Paris, 1983.

4 - *Ibid.* p.18.

5 - J. C. Coquet et autres, *Sémiotique.* L'École de Paris, Paris,1982, p. 5.

6 - *Ibid.*

7 - A. J. Greimas, *Du Sens II*, p. 7.

8 - J.C. Coquet, *Le discours et son sujet*, t. 1 et t. 2, Klincksieck, Paris, 1984-1985.

9 - J. Courtès, *Analyse sémiotique du discours*, Hachette, Paris, 1991.

10 - A. J. Greimas, *Sémantique structurale*, P. U. F., Paris, 1966, réédité en 1986.

11- J.C. Coquet et autres, *op.cit.*, p.15.

12 ـ حوار مع أ. ج. غريماس، أجراه خليل أحمد، الموقف الأدبي، اتحاد كتاب دمشق، العدد 15، نوفمبر 1980، ص. 193.

13ـ المرجع نفسه، ص. 193.

14 - G. Mounin, *Clefs pour la linguistique*, Ed. Seghers, Paris, 1988, p.136.

15 - Claude Germain, *La sémantique fonctionnelle*, P. U. F., Paris, 1981, p. 9.

16 ـ حوار مع أ. ج. غريماس، المرجع السابق، ص. 194.

17 ـ المرجع نفسه، ص. 194.

18- H. Reichenbach, *L'avènement de la philosophie scientifique*, Flammarion, Paris, 1955, p. 223.

19 - J. Courtès, *op. cit.*, p. 52.

20 - Ferdinand de Saussure, *Cours de linguistique générale*, Payot, Paris, 1972, p. 42.

21 - *Ibid.*, p. 162.

22 ـ أ. ج. غريماس، مرجع سبق ذكره، ص. 18.

23- A. J. Greimas, *Dictionnaire raisonné de la théorie du langage*, Hachette, Paris, 1979 ; Groupe d'Entrevernes, *Analyse sémiotique des textes*, P. U. F., Lyon, 1984, p. 8.

24- J. Courtès, *op. cit.*, p. 75.

25- *Ibid.*, p. 27.

26- ابن رشد، تلخيص كتاب المقولات، حققه محمود قاسم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1980، ص. 144.

27- ارتكزنا في ترجمة هذا المصطلح على :

- عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، الدار العربية للكتاب، تونس، 1982.

- مجلة اللسانيات العامة، المجلد الرابع، العدد الثاني، سبتمبر 1992، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، ص.55.

28 - A. J. Greimas, *Sémantique structurale*, *op. cit.*, (1966, 1986), p. 54.

29- السيم في اصطلاح ر. جاكوبسون وف. دي سوسير يعادل السمات المميزة (traits distinctifs) / العناصر الخلافية (éléments différentiels). انظر :

- A. J. Greimas, *Ibid.*, (1966,1986), p. 22.

30 -- *Ibid.*, p. 21.

31- آن إينو، مراهنات دراسات الدلالات اللغوية، ص. 106. ادرجت آن إينو / مجامعة المرأة / في خانة / المحرم /، وقد أجرينا تعديلا طفيفا حتى ينسجم هذا العنصر والمرجعية الإسلامية.

32 - A. J. Greimas, *Sémantique structurale*, *op. cit.*, (1966, 1986), p. 225.

33 - J. Courtès, *op. cit.*, p. 77.

34 - Lucien Tesniere, *Eléments de syntaxe structurale*, klincksieck, 1982, p.103.

35 - *Ibid.*, p. 493.

36- Michel Arrivé, F. Cadet, M. Galmiche, *La grammaire d'aujourd'hui, guide alphabétique de linguistique française*, Flammarion, Paris, 1986, p.120.

37- *Ibid.*, p.493.

38- A. J. Greimas, J. Courtès, *Dictionnaire raisonné* ..., *op. cit.*, p. 54.

39- استندنا في نقل هذا المصطلح إلى اللغة العربية إلى ترجمة نوسي. انظر : «تحليل سيميائي لنص سردي»، دراسات سيميائية، العدد الثالث، ص.41.

40 - A. J. Greimas, *Du Sens*, *op*, *cit.*, p. 77.

41 - A. J. Greimas, «Les acquis et les projets», in J. Courtès, *Introduction à la sémiotique narrative et discursive*, Hachette, Paris, 1976, p.17.

42- Groupe d'Entrevernes, *op. cit.*, p. 35.

43 ـ يجسد القوى الفاعلة الإيعاز (manipulation) الذي يعد طورا أوليا في النظرية السيميائية ويستعمل للدلالة على : «فعل يمارسه إنسان على إنسان ممارسة تلزمه تنفيذ برنامج معطى». انظر :

- A. J. Greimas, J. Courtès, *Dictionnairc raisonné* ..., *op. cit.*, p. 220.

44- يميز أ. ج. غريماس في كتابه في المعنى، ص. 180) بين :

أ- الفاعل العارف الذي تكون قابليته، في إنجاز الأداءات، ناتجة في الأصل عن معرفة الفعل المكتسبة.

ب ـ الفاعل المطبوع على القوة. ويلاحظ، في هذا السياق، أن امتلاك هذه القيمة قد يتم بالحصول على أداة سحرية. تأسيسا على هذا، تأخذ معرفة الفعل عند ج. كورتيس (في كتابه السيميائية السردية والوصفية، ص. 80) شكلين :

ـ معرفة الفعل المكرورة الصادرة عن تقليد نموذج مثالي.

ـ معرفة الفعل الإبداعية المولدة للفعل الإبداعي.

45- A. J. Greimas, J. Courtès, *Dictionnaire raisonné* ..., *op. cit.*, p. 321.

46- A. J. Greimas, *Du sens*, p.180.

47- Groupe d'Entrevernes, *op. cit.*, p. 36.

48- A. J. Greimas, J. Courtès, *Dictionnaire raisonné* ..., *op. cit.*, p. 271.

49- *Ibid.*, p. 271.

50 ـ نستعمل الأداء بمفهوم التحويل المحدث لحالة جديدة. انظر المرجع أعلاه، ص.271.

51 ـ ف. ت. : فعل تحويلي.

52- Groupe d'Entrevernes, *op. cit.*, p. 24.;- Jean-Michel Adam, *Le récit*, P.U.F., Paris, 1991, p. 60.

53 - A. J. Greimas, *Du Sens II*, *op. cit.*, p. 37; Groupe d'Entrevernes, *op. cit.*, p. 25.

54 - A. J. Greimas, *Du Sens II*, *op. cit.*, p. 37.

- Groupe d'Entrevernes, *op. cit.*, p. 25.

55 - A. J. Greimas, *Du Sens II*, *op. cit.*, p. 38.

56 - *Ibid.*, p. 39.

57 - *Ibid.*, p. 39.

58 - J. Courtès, *Analyse sémiotique du discours*, *op. cit.*, p. 94.

59 - A. J. Greimas, *Du Sens II*, *op. cit.*, p. 43.

60 - A. J. Greimas, J. Courtès, *Dictionnaire raisonné* ...., *op. cit.*, p. 71.

61 – يحمل الترابط (solidarité) مفهوم الافتراض المتبادل أنظر :

- A. J. Greimas, J. Courtès, *Dictionnaire raisonné* ...., *op. cit.*, p. 358.

62 – الود إبش؛ د. و. فوكما، «مناهج الدراسة الأدبية وخلفياتها النظرية والفلسفية»، تعريب محمد العمري، دراسات سيميائية أدبية لسانية، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، مجلة فصلية، العدد الثاني، شتاء 87/ربيع 88، ص. 22.

63- T. Todorov, *Théorie de la littérature, textes des formalistes russes*, Seuil, Paris, 1965, p. 99.

64 ـ كلود ليفي ستروس وفلاديمير بروب، مساجلة بصدد : «علم تشكل الحكاية»، ترجمة محمد معتصم، عيون المقالات، الدار البيضاء، 1988.

65 - Vladimir Propp, *Morphologie du conte*, Seuil, Paris, 1970, p. 31.

66 - A. J. Greimas, *Sémantique structurale*, P.U.F., Paris, 1986, p.180.

67 - Vladimir Propp, *op. cit.*, p. 46.

68 - *Ibid*, p. 63.

69 - A. J. Greimas, *Du Sens II, op. cit.*, p. 21.

70 ـ صلة : jonction

فصلة : disjonction

وصلة : conjonction

نقلنا هذه المصطلحات عن حلقة الترجمة التابعة للسيميائية الغريماسية، وقد تبنيناها بناء على الحوار الذي جمعنا بالأستاذ منذر حماد بباريس في سنة 1990.

71 ـ يدل هذا الرمز ⇄ على العلاقة الافتراضية المتبادلة (présupposition réciproque) بين ملفوظين.

72 - J. Courtès, *Analyse sémiotique du discours, op. cit.*, p. 99.

73 - A. J. Greimas, *Sémantique structurale, op. cit.*, (1966, 1986), p.181.

74 - A. J. Greimas, *Du Sens II, op. cit.*, p.49.

75 - A. J. Greimas, in J. Courtès, *Introduction à la sémiotique narrative et discursive, op. cit.*, p.10.

76 - J. Courtès, *Analyse Sémiotique du discours, op. cit.*, p. 99.

77 - *Ibid.*, p. 211.

78 - A. J. Greimas, in J. Courtès, *Introduction à la sémiotique narrative et discursive, op. cit.*, p. 7.

79 - J. Courtès, *Analyse sémiotique du discours, op. cit.*, p. 76.

القسم التطبيقي

قراءة سيميائية في قصة «العروس» للروائي غسان كنفاني

تحليل سيميائي لقصة «عائشة» لأحمد رضا حوحو

سيميائية الفضاء في رواية ريح الجنوب

قراءة سيميائية في قصة «العروس» * [1]

للروائي غسان كنفاني [2]

ـ مقدمة منهجية

إن اختياري لقصة «العروس» كموضَوع لقراءة سيميائية يندرج ضمن مشروع نقدي نهدف من خلاله إلى فحص القصة العربية القصيرة وفق إجراءات التحليل السيميائي، والنظر في فعالية هذه الإجراءات وإمكانية وضعها كقاعدة علمية تُبنى عليها محاورة النصوص ومساءلتها وفهمها فهما يرتكز على تحليل يستمد مشروعيته العلمية من تحديد موضوع الدراسة وزاوية النظر، ومن فرضيات البحث والتحقق منها أثناء الدراسة، ومن القراءات النظرية والتطبيقية الراهنة التي حققت قفزة نوعية بتثبيتها لقواعد البحث العلمي وتجاوزها المعالجات الكلاسيكية للنصوص التي جمدت الفكر وحصرته في أطر لا تتجاوز الأحكام المعيارية في الوقت الذي تشهد فيه الساحة النقدية العربية انتعاشا علميا في بعض المجالات المتخصصة التي لم ترق بعد، لاعتبارات عديدة، إلى صياغة مصطلحية نقدية موحدة في البحث، وسد الطلبات المتزايدة على مناهج تحليل النصوص، وتلبية الرغبات الحادة في معرفتها. غير أن تحري المعرفة «غير قار في أغلب الأحيان» [3].

ويعد الحديث عن علم النص الأدبي في الوضع الراهن للبحث، سابقا لأوانه لاعتبارات ثلاثة :

ـ أولها : إذا سلمنا بأن العلم يسعى إلى معاينة وتصنيف الظواهر القابلة للملاحظة ويتميز بموضوع ومنهج محددّين ويتأسس على علاقات موضوعية يمكن التحقق منها، فإنّ الحديث عن علم الأدب يعني أن مسألة العلموية

* محاضرة ألقيت في ملتقى «علم النص، التحليل الأدبي واللغوي للنصوص» المنعقد بمعهد اللغة العربية وآدابها ـ جامعة الجزائر، أيام 27 ـ 28 ـ 26 ابريل 1997.

محسومة سلفا بوجود قوانين علمية للأدب على نحو ما هي موجودة في العلوم التجريبية ـ هذا الطرح، على أهميته، يملي علينا بعض التحفظات، ذلك أن علم الأدب في الفكر النقدي الأوروبي تقف وراءه تيارات نقدية عرفت تطورات يعسر معها تدقيق ما نعنيه بموضوع هذا العلم.

ـ ثانيها : تتحدد الرؤية المنهجية لدعاة علم الأدب على لسان رومان جاكوبسون R. Jakobson في المقولة الآتية : «إن هدف علم الأدب ليس الأدب (...) وإنما أدبيته، يعني العناصر المجددة التي تجعل منه عملا أدبيا»[4].

يتضح عند هذه النقطة من الدراسة أن موضوع علم الأدب، من منظور رُومان جاكوبسون، يتجسد في الأدبية بوصفها قاعدة تجيز لنا التمييز بين الأدبي وغير الأدبي ـ ولنفرض أن مسألة موضوع علم الأدب قد تحسم بوضع هذه القاعدة فإنّ الإشكال يبقى قائما، ذلك أن الأشكال «الأدبية» (صور، أنساق، تنظيمات خطابية و/ أو سردية) لا تملك ما يزكي خصوصيتها الأدبية التي تلتقي مع النماذج الخطابية الأخرى. وفي غياب القوانين أو الانتظامات البسيطة الخاصة بالخطاب الأدبي، فإنّ الحديث عن الأدبية لا معنى له[5].

في ضوء ما أوردناه من ملاحظات، فإنّه من الجائز أن نقول إن الكلام عن علم الأدب، بصرف النظر عن المناخ الإيبيستيمولوجي الغربي الذي تبلورت فيه النظريات النقدية والتطورات التي مستها، وتحديد الجهة التي يبحث فيها هذا العلم، يثير تساؤلات تظل الإجابات عنها مشروطة بالمعاينة التاريخية للممارسات النظرية التي أفرزت خطابا نقديا مبنيا على رؤية جديدة للأدب، وبالتركيز، في هذا المنزع، على التيارات النقدية واللسانية التي رافقت هذا التطور وجاءت لتصوغ إجابات حول إمكانية تقديم مشروع علمي في الأدب والعلوم الاجتماعية.

ـ ثالثها : بدأت معالم موضوع الدراسة في المجال النقدي والرؤية العلمية تتبلور مع بداية الستينيات التي تشكل مرحلة حاسمة ومتميزة في التنظير النقدي، توجت بظهور كتاب علم الدلالة البنيوي لـ أ. ج. غريماس (لاروس 1966) الذي يعد على حد تعبير ج. ك. كوكي J. C. Coquet بحثا حقيقيا في السيميائية.

وفي هذه المرحلة، نما الشعور بضرورة التفكير في علمنة الممارسة النقدية من خلال تحديد المنهج والموضوع وتطويق إشكالية البحث، والنظر في الأصول النظرية التي تأسست عليها فلسفة العلم وفي إمكانية تبنّي مشروع علمي مبني على فرضية التشاكل (isomorphisme) بين صعيدي التعبير والمضمون التي تجيز لنا تصور البنية الدلالية على أنّها تمفصل للعالم الدلالي إلى وحدات معنوية دنيا متوافقة مع السمات المميزة لصعيد التعبير. وتتشكل هذه الوحدات الدالة من مقولات سيمية ثنائية بنفس طريقة تشكل صعيد التعبير[6].

ضمن هذا الاطار المنهجي تندرج دراستنا التطبيقية التي لا تعدو أن تكون مجرد قراءة لا تنفي إمكانات قراءات أخرى، لكنّها قراءة تحاول اكتناه التمفصلات الأساسية للنص استنادا إلى الهيئة التلفظية المؤسسة للفاعل، والقنوات التي يمرر عبرها مضامينه.

تعتبر هذه العملية أساسية في البحث، إذ بموجبها تدرك استراتيجيات القوى المتصارعة وطموحاتها التي تجسدّها البرامج السردية الرئيسية والملحقة. سيقودنا هذا المسار التحليلي إلى فهم الرهانات السيميائية في القصة وضبط دورتها الدلالية.

تلزمنا طبيعة هذا التوزيع تقطيع النص إلى مقطوعتين. تبدأ الأولى من «عزيزي رياض» إلى «إنّه محاط بشيء يشبه الغبار المضيئ» (ص.151ـ 152)، وتبدأ المقطوعة الثانية بـ «معك حق، ولكنني أكتب لك هذه الرسالة الثانية ...» وتنتهي بـ « فلديّ أخبار جديدة عن العروس» (ص. 152ـ 163).

1. تحليل الرسالة الأولى

تحمل هذه المقطوعة شكل رسالة يوجهها الراوي في صيغة الأنا المتكلم إلى الأنت (رياض) ؛ وهو هيئة مخاطبة، مشخصة نصياً جاءت مسبوقة بصورة / عزيزي / في بداية النص ونهايته (ص. 151ـ 163) لتعكس، على الصعيد التيمي (thymique)، علاقة تحكمها وصلة حميمية على أساسها

يطلب منه الراوي تنفيذ برنامج سردي يفتقر إلى غاية (موضوع قيمة) مرسومة سلفا :

«ابحث معي حيث أنت عن رجل طويل جدا، صلب جدا، لا أعرف اسمه، ولكنّه يلبس بدلة خاكية عتيقة ويلوح لأول وهلة كأنّه مجنون»[7].

يحتل الراوي في هذا الملفوظ مكانة مركزية تتميز بوضعه كمرسل يحفز بصيغة الأمر رياض ويؤسس فاعلا في مشروع سردي يستدرجه من خلاله إلى قبول العقد ووجوب التحري عن الرجل. غير أن البحث عن رجل نكرة يطرح إشكالا في غاية التعقيد. كيف يمكن أن يلتمس الفاعل موضوعا نكرة ؟

«ماذا يمكن أن نفهم من هذا كله ؟ لا شيء طبعاً، فالمرء يصادف في اليوم الواحد إذا ما سار في الطريق، مائة رجل يحملون هذه الصفات، فأي واحد منهم تراني أقصد ؟» [8].

يبدو المرسل في حيرة، فهو يدرك تمام الإدراك أن رسالته غير مفهومة ويستحيل فك رموزها بهذا الشكل وأنه يدور في حلقة مفرغة وفي وضع مضطرب لا يملك فيه / القدرة / على التمييز والمعرفة (لا يعرف اسمه). تقتصر معرفته على مستوى الظاهر (paraître)، العلامات الدالة على مظهره الخارجي (طويل جدا، صلب جدا، يلبس بدلة خاكية عتيقة، ويلوح لأول وهلة كأنّه مجنون) هذه العلامات غير كافية لتمييزه عن بقية الرجال. ويعترف الراوي بأن طلبه غير معقول ولا يصدر، إلا عن مختل عقليا :

«لقد اكتشفت أنّه محض جنون أن أكتب وأقول لك» [9].

بدخوله في وصلة بالجنون، يدرك الراوي أنّه ينسف علة وجود الفاعل رياض ومشروع تحريه، ومشروعية وضعه كمرسل.

قاده شعوره باضطراب الوضع إلى ضرورة التدقيق في الماضي عبر ذاكرته والتنقيب عن علامات مميزة أخرى كفيلة برفع الالتباس وتحقيق التواصل مع رياض :

«ولكن يخيل إلي الآن أنني حين شهدته لأول مرة كان محاطا بما يشبه الضوء، نعم كان محاطا بشيء يشبه الغبار المضيئ»[10].

نلاحظ في بداية هذا الملفوظ أن الراوي لم يملك بعد القدرة على ضبط العلامة المميزة : / بما يشبه الضوء /.

هذه الصورة التي لم تستقر ذاكرته عليها لحصول اللبس، سرعان ما تتحدد معالمها بصورة إضافية : / الغبار المضيئ / تحيل وحدتها المضمونية على المحيط المضطرب للرجل وعلى انتقال الراوي من الحديث عن / الرجل / إلى الحديث عن / المحيط /. وتبقى العلامات الأربع معلقة يستحيل معها فك رموز حاملة في مضامينها أسباب فشل مشروع الراوي في تبليغ معرفته لرياض وتأسيسه كفاعل في برنامج التحري عن الرجل.

2. تحليل الرسالة الثانية

تبدأ الرسالة الثانية بانتقال الراوي من الحديث عن العلامات المميزة للرجل إلى مستوى رواية قصته الكاملة، وهو انتقال يعكس رغبته الحادة في اقناع رياض بحقيقة ما جرى :

«معك حق ولكنني اكتب لك هذه الرسالة الثانية في يوم واحد لتعرف القصة بكاملها، ذلك أنني رأيت أنه صار من حقك، وقد طلبت منك مشاركتي في البحث عنه، أن تعرف ما أعرفه»[11].

نسجل في هذا الملفوظ تدرجا (hiérarchie) في السرد يعبر عن النقلة التي يحدثها الراوي من صعيد العلامات الخاصة بالرجل إلى صعيد قصته ـ تتقدم النقلة كبديل لتجاوز المعيقات (المرئية) التي تحول بينه وبين معرفة العلامات الملازمة للرجل واللازمة لمعرفته ـ فهو يخرج القارئ من منطق العلامات المؤسسة لكيان الرجل بوصفه ماهية (من هو ؟) إلى منطق القصة بوصفها فعلا (ماذا فعل ؟) جرى قادراً أن يكون نقطة استدلال وارتكاز لذكر ما جرى فعلا[12].

يتضح عند هذه النقطة من الدراسة أن وجوب تبليغ القصة يتّسم بطابع إلزامي يدخل في علاقة تضايف بالحق في المعرفة إذ بامتلاكها تتحقّق شروط العقد الائتماني (تبليغ المعرفة مقابل تقديم خدمة) ويتأسس رياض فاعلا في برنامج التحري عن الرجل، ويصير البحث عنه واجبا.

على هذه القناعة التي نفترض أنها ستكون متبادلة بين المرسل ورياض، يتأهب الراوي لذكر ما جرى :

«لست أذكر بالضبط متى رأيته لأول مرة، لكنني أذكر تماما كيف رأيته : مثل إنسان ضيع شيئا»[13].

تبدأ الرسالة الثانية بعودة الراوي إلى الماضي ؛ وهي عودة، إن كانت غير مؤسسة على نقطة استدلال زمنية محددة، فإنها متموضعة في فترة تاريخية سابقة لزمن تلفظ الراوي ومؤطرة لأول اتصال حدث، على صعيد الرؤية، بينه وبين رجل يجسّد وضعه ملفوظ حالة فصلي (disjonctif) ؛ يتقدم الرجل إذن كفاعل حالة في فصلة (disjonction) عن موضوع قيمة متُماه في / شيء / بدأ ينحسر ويتشكل تدريجيا في برنامج سردي يرمي من خلاله الرجل إلى الدخول في وصلة (conjonction) بالعروس :

« ... وضع كفه الكبيرة على كتفي وسأل» :

- هل رأيتها ؟

- رأيت ماذا ؟

- العروس !

وطبعا تيقّنت لحظتذاك أنّه مجنون، وأن ما انتابني أمام عينيه القاسيتين هو ما ينتاب أي إنسان يجد نفسه هدفا لعيني رجل مخلوع عن العالم والمعقول، لذلك اخترت الهروب الأسهل فقلت له :

- كلاّ لم أر العروس ...[14].

يأخذ موضوع القيمة (objet de valeur) المجسد في / العروس / شكله النهائي، ويصير الراوي مالكا لمعرفة مقطوعة عن معطياتها المرجعية وهذا ما

يعلل تعجبه أولا، وجوابه السلبي ثانياً واتهامه بالجنون ثالثا. تحمل العروس التي تشكل موضوع قيمة تحري الرجل رسالة مفرزة لقيم لا يعرف الراوي نفسه فيها ؛ من هنا جاءت صعوبة القبض على معنى ما يقول الرجل فحصل الالتباس.

«وعندها سقطت يده من تلقائها إلى جنبه واستدار، إلا أنني سمعته يقول، كأنما لنفسه :

ـ كلكم تقولون هذا، منذ عشر سنوات »[15].

يقرن الرجل هنا الأنت المخاطب (الراوي) بالأنتم : كلكم بوصفه عاملا جماعيا يصدر سلوكا موحدا صادراً عن رغبته في قطع سبل التواصل معه ـ فهو يعرف حقيقة العروس ولا يريد الإعراب عن هذه الحقيقة. سيؤدي هذا الوضع المأسوي إلى انجراف الرجل نحو هوة يتوحد فيها الصمت واليأس.

«... وعبثا حاولت اللحاق به (...) لقد نقبت الشارع صعودا ونزولا، قابلت مئات من الرجال الذين يشبهونه تماما ولكنه هو نفسه كان قد اختفى»[16].

إن فشل الرجل في التواصل مع العامل الجماعي ولد لديه شعورا بضرورة وضعه أمام مسؤوليته وإحداث القطيعة مع القيم الجماعية السائدة. لقد وصل إلى درجة أصبح فيها التعامل معه مستحيلا، فكان الاختفاء الذي خلق توترا ووضعية لا توازن على الصعيد السردي أحدثت اضطرابا لدى الراوي الذي لم يقُر لحظة اللقاء بالرجل، فاختار الهروب الأسهل :

«ولذلك اخترت الهروب الأسهل فقلت له :

ـ كلا لم أر العروس» [17].

هذا الجواب الجاف الذي يدلل على أنه لم يرغب في ربط أواصر الحوار معه، يعد في حد ذاته شكلا من أشكال إقصائه والإساءة إليه بما أنه تجاهله ولم يحاول أن يفهم حقيقة العروس والعشر سنوات التي مضت. إن اختفاءه

ولد لدى الراوي شعورا بالذنب أفرز وضعية لا توازن تزامنت معها هذه الرغبة في اللحاق بالرجل وتعويض الافتقار (manque) برد الاعتبار إليه.

ستقوده هذه الوضعية المضطربة المتسمة باليأس في العثور عليه إلى تحديد الدعوة لرياض وتأسيسه فاعلا مساعدا في مشروع البحث عنه :

«عنه أبحث، وعنه أيضا أطلب منك مشاركتي البحث (...) قبل أن أسألك سألت غيرك، لم ألجأ إليك إلا لأنني منذ رأيته، ألجأ إلى كل من أعرفه، أستوقف كل من تربطني به أدنى علاقة وأسأل عنه»[18].

في هذا الملفوظ ينصب الراوي نفسه فاعلا في مشروع التحري (quête) الذي يقوم أساسا على استراتيجية الاتصال المتدرج بالمعارف القريبة والبعيدة. غير أنه سرعان ما يعطل هذا المشروع، فتنحى القصة منحى آخر مفرز لمستوى آخر يجسده تعديلا في موضوع رغبته (objet de désir) :

«إذا كان ذلك الرجل قد دأب على سؤال الناس على العروس منذ عشر سنوات كما قال، فإن الشيء المؤكد تماما أنّ كثيرا من أولائك الناس الذين سألهم ينتابهم الآن ما ينتابني».

وكنت أسير ذات يوم في الطريق ودون أن أعرف ما الذي أنوي عمله (...) مضيت إلى الرجل وسألته :

- هل رأيت العروس[19] ؟

يتّضح عند هذه النقطة من الدراسة أن العامل الجماعي (الناس) الذي تنكر للرجل على امتداد عشر سنوات، مارس فعله التأويلي (faire interprétatif) على سؤاله، فاكتشف أن خطابه يتّسم بالصدق (vérité) واقتنع بوجوب التحري عن أخبار العروس. تُعتبر هذه القناعة الجماعية معطى نصيا نسلم به مبدئيا في انتظار توفر العناصر النصية الضرورية لحصر التخريجات الدلالية بخصوص تشكل هذه القناعة والوسائل التي أسهمت في إحداث التحول النوعي من الإدراك الفردي إلى الإدراك الجماعي.

«الآن دارت الدورة أو أنا الذي دُرتها، لابد من أن أعود إلى نقطة البدء، إلى ذلك الرجل المُحاط بما يشبه النور والذي من شفتيه (...) سمعت ذلك السؤال

لأول مرة في حياتي، نعم يا رياض، لابد لي من رؤيته ... فلدي أخبار جديدة عن العروس[20]».

نشهد في هذا الملفوظ السردي تحولا جذريا حصل على مستوى كفاءة الراوي : نقله من / اللامعرفة/ إلى / المعرفة / (savoir) المتشكلة من الأخبار الجديدة عن العروس ـ فهو يريد، استنادا إلى هذه الكفاءة (compétence)، أداء رواية قصة الرجل والعروس من بدايتها إلى نهايتها رغبة منه في إقناع رياض بوجوب التحري عن الرجل.

وتبدأ القصة :

«كان من قرية (شعب) شابا لم يكن قد ضيع شيئا بعد، ولكنه لم يكن عند ذاك قد وجد أي شيء أيضا»[21].

في هذا الملفوظ تنسب / القرية / إلى / شعب / لتحديد انتمائها أولا وضبطها جغرافيا ثانيا. يمكن أن نفترض، من منظور سوسيوسياسي، أن صورة / شعب /، فضلا عن كونها تحمل سمة تمايز هذه القرية عن باقي القرى، قد تدل أيضا على الجماعة الكبيرة التي تتكلم لسانا واحدا وتخضع لنظام اجتماعي واحد تكون فيه المواطنة حقاً شرعيا. سنحتفظ بهذه الفرضية ريثما نجد لها، في أثناء التحليل، بعض المسوغات النصية التي تؤكّدها أو تنفيها.

يحتل الشاب الذي ينتمي إلى قرية «شعب» موقع فاعل حالة (sujet d'état) ويتحدد على صعيد المُلك (avoir) ؛ فهو وإن لم يكن قد ضيع شيئا أو وجد أيّ شيء، فإنّه، في جميع الحالات، «يملك»، وتنصهر طبيعة الملك غير المؤطرة نصيا في «شيء». يجسد ملفوظ الحالة المثبت أعلاه دخول فاعل الحالة (الرجل) في وصلة بشيء نكرة.

«لا بد أن قصته قد بدأت في يوم من أيام حزيران الأولى عام 1948، كان القتال الدموي قد استمر دون انقطاع طوال أكثر من ستة أشهر»[22].

«فقد تركز القتال بصورة جادة في الجليل ...»[23].

نسجل في مطلع هذه القصة تثبيتا تاريخيا وفضائيا للنص يحيلنا على البدايات الأولى للصراع العربي الإسرائيلي الذي تنعكس تجلياته في وضع مضطرب (حرب) يدخل في ثنائية ضدية مع وضع مستقر سابق (سلم). تجسد هذه الثنائية مرحلتين متمايزتين :

قبل (1948) عكس بعد

الشاب في وصلة بالملك (أرض فلسطين) عكس الشاب في فصله عنه

سلم عكس حرب

يمكن أن نلاحظ أن الملك الضائع المتماهي في الشيء «النكرة» تشكل، أخذ صورته النهائية وأصبح «معرفة». سيمثل موضوع القيمة فلسطين رهان القتال الدموي في النص.

«وكان هو ـ وأنا ما زلت أجهل اسمه ـ سيد الذين يندفعون إلى القتال، هجوما كان أم نجدة أم دفاعا، إلا أنه كان يشترط أن يعرف موعد العمل بساعتين على الأقل، كي يكون أمامه متسع من الوقت للتفتيش على من يقبل أن يعيره سلاحا»[24].

يقدم / القتال الدموي / كفعل تحويلي يرمي من خلاله العامل الجماعي (الشاب، الذين يندفعون إلى القتال) إلى تحرير الأرض الفلسطينية. ويُجسد الشاب في هذا الفعل صورة / السيد التي تعكس وحدتها المضمونية كفاءته المتجلية في معرفته العسكرية وقدرته على توقع وبرمجة العمليات الضرورية (الهجوم، النجدة، الدفاع) لتحقيق برنامج سردي يعد فاعلا ديناميا فيه ويكون الهدف منه استرجاع موضوع القيمة.

غير أن هذا الفاعل ملزم، لإنجاز هذه الغاية، بتحيين مشروع آخر يشكل برنامجاً سرديا وسيطا (ملحقا) يهدف إلى الدخول في وصلة (conjonction) بالسلاح. فالنص يطرح إشكالا : أمام هذا الوضع المضطرب المتّسم بحدة

المعرفة، ليس أمام الفاعل إلا أن يؤدي دورين متنافرين يعقدان مهمة فك الحصار : البحث عن السلاح متزامن مع المواجهة الدموية.

«لم أعرف بعد من الذي زرع في رأسه، في أحد تلك الأيام الأولى من حزيران، أن عليه الحصول على السلاح، وكان هذا الرأي سليما تماما، فقد تركز القتال بصورة جادة في الجليل، وألقى العدو ثقله هناك، وابتدأت أنهار المهاجرين تسيل في التلال نحو الشمال، وبدا كل شيء وكأنّه يقف على الحافة»[25].

يؤكد الراوي في بداية هذا المقطع وجود هيئة غير محددة نصيا تحتل موقع المرسل، تحفز الفاعل وتعمل على إقناعه بضرورة الحصول على السلاح. الراوي يجهل هذه الهيئة ويأول، بوصفه ملاحظا للمشهد الحربي، إيجابيا تجليات فعل المرسل («كان هذا الرأي سليما»). يعكس هذا المشهد برنامجين :

- البرنامج السردي للعدو الذي توج أداءه العسكري بهيمنته على فضاء الجليل واكتساح أهله.

- برنامج هروب ونزوح العامل الجماعي طلبا للنجاة (الحياة) نحو الشمال. إن تحركه بهذا الحشد الهائل المعبر عنه بصورة / الأنهار / لم يصدر عن طوع خاطر أو اختيار مسبق، فهو أمام أمرين : إما أن يبقى في الجليل فيموت أو يهجر فتكتب له الحياة. وموضوع القيمة (الأرض) في كلتا الحالتين ضائع. لم يضطر إلى الهجرة سوى لأنّه يفتقر إلى الوسيلة التي تمكّنه من دفع المضرة وتحرير الأرض. فهو مستعد للاندفاع إلى القتال ويرغب في تحقيق أدائه وقادر على تنفيذ الفعل الثوري. غير أن هذه العناصر المشكلة لكفاءته لا تكفي. ولفهم هذا العجز، ينبغي أن نرقى إلى مستوى آخر لننظر في كفاءة الهيئة القائدة الكفيلة لوحدها باستيعاب الفعل الثوري وتوجيهه بشكل يؤدي إلى نجاح المهمة الصعبة. وتبدو هذه الهيئة، على مستوى المنظومة العسكرية، عاجزة عن تنظيم صفوفها ومفتقرة في الوقت نفسه إلى قيادة قديرة على الإمداد بالدعم اللوجيستيكي.

يؤكد افتقار العامل الجماعي إلى السلاح المعاناة الحقيقية للجندي العربي الذي يتحمل لوحده نتائج فعل تنظيمي ليس من اختصاصه وليس مسؤولا عنه. وهو يعبر عن وجود تعطيل في السلم العسكري وهوة كبيرة بين الجهاز التنظيمي والفعل الثوري.

يمكن أن نأول عجز القيادة المسكوت عنها في النص على أنه منع لتنفيذ البرنامج العسكري ومعارضة لإرادة العامل الجماعي المتجلية في تعريضه للهجرة والموت.

«لا شك أنه كان أصلب من أن يتردد كثيرا (...). كان قد عقد عزمه بصورة ليس بالوسع زحزحتها، لقد سلم سلاحه (...) لأحد رفاقه ومضى يزحف تحت غيوم راعدة من النار، كان على يقين بأن بعض جنو د العدو في خطوطهم الأمامية قد قتلوا، وأنّه لو انتظر إلى نهاية المعركة لفقد فرصته، كان يعرف أنّهم يسحبون جنودهم بالجبال بعد انتهاء القتال»[26].

يؤسس في هذه المقطوعة السردية ضمير الغائب هو (الرجل) فاعلا في برنامج ملحق يهدف إلى الدخول في وصلة بالسلاح قصد دفع المضرة وإعادة التوازن للوضع المضطرب الذي نتج عمّا ألقاه العدو من ثقل في المعركة. وصدرت هذه المبادرة الفردية التي لم تنشأ عن تخطيط مسبق أو استراتيجية حربية وضعتها القيادة، عن قدرته على توقع الهزيمة (وبدا كل شيء وكأنه يقف على الحافة) وتأويله الإيجابي للوضع الذي جعله يتخلّى عن إمكانية التراجع والهجرة الاضطرارية ويتشبّث بفكرة البقاء التي تعني بكل بساطة الموت.

يقدّم النص الفاعل على أنّه مؤهل لتمكين الفاعل الجماعي من تحقيق الفعل الثوري. لسد النقص اللوجيستيكي، ولو بشكل رمزي، يسلّم سلاحه لأحد رفاقه. يُسجل الفاعل، بهذا السلوك، استقلاليته عن أي مرسل خارجي ويأخذ على عاتقه تنفيذ الأداء - تجليات كفاءته يُجسدها، على مستوى الإرادة، إصراره، وعلى مستوى القدرة إقدامه، وعلى مستوى الواجب زحفه وعلى مستوى المعرفة خبرته بشؤون الحرب - هذه العناصر تدوزن فعله العسكري

باتجاه الغيوم الراعدة من النار التي تحيل على فعل مضاد يرد مهمته مستحيلة، ذلك أن الفاعل يملك من العتاد الحربي ما يؤهله لرد أي هجوم.

«وقد استطاع أن يصل بالفعل إلى الخنادق المحروقة (...) وبأسنانه فك يد القتيل عن بندقيته ومضى عائدا إلى رفاقه.

وسرى الخبر في كل القرى (...) ليس لأنّها كانت الحادثة الأولى من نوعها ولكن لأن البندقية التي جاء بها كانت بندقية نادرة.

وانحنى الواقفون ينظرون إلى البندقية الجديدة (...) : كان نراعها ذا لون بني كامد، وكان حزامها الخاكي جديدا تماما، مجدولا بعناية لا تصدق وكان مشطها يعلو كأنّه التاج»[27].

بوصوله إلى فضاء العدو ينجز الفاعل أداء يمكنه من الانتقال من وضع يتميز باليأس والافتقار إلى السلاح إلى وضع يتسم بعودة الأمل حقّق فيه الفاعل وصلته بالبندقية التي تشكل موضوعا يمارس عليه الفاعل الجماعي (الواقفون) تأويله : فهو يجردها من وظيفتها الأساسية المحدثة للموت ويخلع عليها صورا محدثة لحياة تتجلى عبر : / الذراع / الحزام / التاج / لتشكل مسارا صوريا يحيل على العروس التي تشكل موضوع تحري الرجل في بداية النص ونقطة تقاطع بين هذه الوضعية السردية التي دخل فيها الرجل في وصلة بموضوع القيمة (= البندقية / العروس) والوضعية السردية اللاحقة التي انفصل فيها عنه. ستندرج هذه الفصلة ضمن برنامج سردي يكون فيه العامل الضابط فاعلا ديناميا :

«لقد استدعي في اليوم التالي إلى القيادة (...)، كان الضابط قد سمع عن البندقية، وحين شهدها أمامه بين كفي الرجل فتح عينيه على وسعهما :

ـ هذه مرتينة شيكية.

ـ يجب أن آخذ هذه المرتينة إلى القيادة.

وكي يطمئن على بندقيته أقسم له الضابط أن يعيدها له بأمشاط إضافية خلال يومين»[28].

يمارس الضابط في هذا المقطع فعله الإقناعي لإثارة لدى الرجل فعلا تأويليا إيجابيا. فهو بحجة التقيد بالأوامر، يأخذ موضوع القيمة (البندقية) وفي مقابل ذلك يلزم نفسه (وجوب الفعل) بتنفيذ شروط العقد [يعيد له البندقية والأمشاط (هبة إضافية)]. يحتل الرجل، على هذا الأساس، موقع فاعل حالة (sujet d'état) ينتظر من الضابط أداء حقه.

إذاكان الطابع التعاقدي للعلاقة الذي تؤسس حقه بديهيا، فإن الطبيعة الإلزامية لحدوث أمل ورغبة الرجل في الاتصال ببندقيته تصير واجبا يحدد علة وجود العقد الائتماني. ويمكن أن نفترض أن التحويل المرتقب سيفضي إلى وضعيةتوازن متجانسة مع العلاقات الاجتماعية العادية المرتكزة على الصدق في القول، من جهة، والثقة، من جهة ثانية.

غير أن الأمور لا تجري وفقا لشروط العقد. يبيع الضابط البندقية وينسف العلاقة التعاقدية على نحو ما يظهر ذلك جلياً في المقطع السردي الآتي :

«- من حلالي اشتريتها أمس أمام خمسة شهود من ضابط باعها لي ...[29].

- دفعت بها مئة جنيه مهر ابنتي الوحيدة، لقد رفضت كل عمري أن أزوجها لذلك العجوز النتن (...) لقد دفع مئة جنيه، دفعتها بعد ربع ساعة فقط ثمنا لهذه التشيكية»[30].

يشغل الأنا اللافظ (énonciateur) موقع فاعل حالة مفتقر إلى المال، فهو لا يملك، وتندرج رغبته في الملك (avoir) ضمن برنامج سردي ملحق (programme narratif annexe) يمكّنه من شراء السلاح والانضواء تحت البرنامج السردي الأساسي المتّصل بالدفاع عن الأرض الفلسطينية ومحاربة العدو. فيتقاطع تحقيق هذا الأداء مع رغبة العجوز في الزّواج من ابنته، ويصطدم البرنامجان لافتقاره إلى الرغبة والقدرة في / على مصاهرة عجوز نَتِن. تحمل صورة / النّتانة / قيمة دالة تتجانس وتتعاضد مع صورة / العجوز / لتثير رفضه. ولكن اشتداد القتال الدّموي يقوده إلى قبول الصفقة، فيبيع ابنته لتتحول إلى موضوع ديكور في فضاء العجوز، ويدخل في وصلة بالملك (المهر). سيؤهله هذا الوضع لإبرام عقد مع الضابط (يشتري منه البندقية مقابل

المهر) [31] يحقّق بموجبه برنامج التحري عن السلاح، ويحقّق الضابط في مقابل ذلك برنامجه الخاص بتنمية ثروته. تفرز هذه المقابلة الثنائية الضدية الآتية :

وفاء عكس خيانة

فحصنا البرنامج السردي للضابط في علاقته بالعجوز. بقي لنا الآن أن نديم النّظر في علاقة الضابط بالرجل ونعالج التطورات التي مستها، في ضوء المعطيات المستجدة، والآليات التي تحكمها وتسيرها تسييرا يتراءى في البنية الدلالية الشاملة للنص والمجسدة في برنامج تحري الرجل عن بندقيته والمعيقات التي حالت دون تحقيق غايته على نحو ما يتضح ذلك في المقاطع السردية الآتية :

I ـ مر اليومان ومر الأسبوع (...). من مركز القيادة إلى الدار ومن الدار إلى مركز القيادة ...

ـ انتظر الآن وتعال غدا.

ـ قيل له إن الضابط قد نقل مركز قيادته إلى الشمال حيث لا يعرف أحد.

II ـ في طول ما تبقى من الجليل مضى ليل نهار يبحث عن بندقيته :

ـ من قرية إلى أخرى ومن مقاتل إلى آخر.

ـ لقد مضى هو صعودا (...) إلى البروة ومن هناك إلى مجد الكروم، إلى البعنة، إلى دير الأسد، إلى كسره، إلى كفر سميع، متعقباً أخبار بندقيته خطوة خطوة، من قصة إلى أخرى ومن رجل إلى آخر.(ص. 158).

III ـ ولكنه هو في ترشيحا، كان يشم بندقية قريبة كأنها في متناول يده. (ص. 159).

VI ـ وقيل له يومها إن بندقية تشيكية جديدة شوهدت مع رجل عجوز...(ص. 159).

ـ وراء أخبار البندقية من باب إلى باب قيل له إن العجوز الذي شوهد يحملها قد مضى ربّما ليلتحق بالمقاتلين (ص. 160).

V ـ ولكن الذي أدريه هو أنه، تلك الظهيرة القائظة، شـاهد بندقيته على كتف رجل في الساحة (...) شدّها إليه وهي لما تزل معلّقة على كتف الرّجل.(ص، 160)

يؤكّد الراوي في الوضعية I من خلال السمة الشكلية في الفعل (مر) المكرر مرتين على خرق الضابط للمدة الزمنية التي التزم بها. ويتضح أنّه أعطى أوامر محملّة برسالة تنتفي فيها إرادته في الاتصال بالرجل لتجميد رغبته ودفعه إلى اليأس والتخلي عن برنامج التحري عن البندقية ـ غير أن الأمور لا تجري وفق ما يشتهيه ـ فتعكس العملية، ويصر الرجل على البحث وتقوى رغبته وتتزايد، وتنكسر شوكة الضابط فيصل إلى درجة قصوى من اليأس تقوده إلى نقل مركز قيادته إلى فضاء مجهول.

تكمن وظيفة مجهولية الفضاء في تجميد فعل الرجل وإدخاله في فصلة عن موضوع المعرفة لشل كفاءته وإزاحته من موقع الفاعل الحيوي.

يتنوع في الوضعية II نشاط الرجل بتنوع الأفضية وعلى امتداد زمني متواصل (ليل ـ نهار) بحثا عن أخبار البندقية.

ونسجل في الوضعية III تطورا ملموسا في البحث يؤدي إلى دخول الرجل على الصعيد الشمي (olfactif) في وصلة برائحة البندقية التي تلتقي دلاليا بالوحدات المعنوية لصورة / العروس /.

في الوضعية IV يكثف الرجل من اتصالاته التي تمكّنه من الحصول على علامات مميّزة تكشف عن رجل عجوز حامل البندقية ومجال تحركه.

ويُحقّق الرجل في الوضعية V، على صعيد الرؤية، وصلته بالبندقية ويدرك إدراكا قطعيا أنّها انتقلت من هيئة عسكرية (الضابط) إلى هيئة مدنية (العجوز):

« ـ من حلالي اشتريتها أمام خمسة شهود من ضابط باعها لي، وهو يتجه إلى الشمال، بمائة جنيه»[32].

فالضابط، منذ بداية القصة، قدم ظاهرا (paraître) يوحي بتفانيه في الخدمة ووفائه للقضية الفلسطينية. وبالمقابل يسند إليه الرجل، في ارتكازه

على الظاهر، ماهية (être) مناسبة. وتحدث قيمة الصدق (vérité) المتولدة من التأويل الإيجابي، وضعية توازن يطمئن الرجل على إثرها ويعتقد في الوقت نفسه أن البندقية راجعة لا محالة.

الضابط يرفض تسليم السلاح للرجل، يبيع البندقية ويحول بينه وبين رغبته في الدفاع عن الحق في الوجود. فينتقل بذلك من وضعية أولية تبدو صادقة إلى وضعية باطلة متسمة بالخيانة : تنمية الثروة في الوقت الذي يموت فيه الناس وتسقط البلاد وتحترق المزارع [33].

ويكشف الرجل في تحريه المتواصل عن البندقية القناع الذي كان يحجب ممارسته الحقيقية. ستحدث وصلته بهذه الحقيقة وضعية مضطربة («وبدا أنّه(...) سيتهاوى» [34]. و«بهدوء استدار كشيء محطّمٍ ومضى. وليس يدري أحد أين ذهب» [35]) صادرة أساسا عن افتقار مزدوج موضوعي (objectal) (فقدان موضوع القيمة : البندقية) وائتماني (أزمة ثقة) [36]. ويتضح جليا أن خيبة أمله (déception) نشأت من سلوك الضابط المأول على أنّه غير مطابق لما كان ينتظره. وقد ولد لديه هذا الشعور بالإحباط، أزمة ثقة (crise de confiance) قادته إلى التدمير الذاتي، ثم الهروب والاختفاء.

يتضح عند خاتمة هذه الدراسة أن السيولة الحدثية في القصة تتسرب عبر تكتل جماعي (الفئة الفقيرة) أيقظ شعوره الوطني الرجل والوضع الذي آل إليه الفلسطيني. وقد أبدت هذه الفئة عبر الرجل الذي ضحى بحياته من أجل الحصول على السلاح والعجوز الذي ضحّى بأعز ما يملك، مواجهة عنيفة ضد الاحتلال الإسرائيلي. غير أن الفعل الثوري، وإن بدا مفتقرا إلى الإمدادات العربية، لم يخضع لاستراتيجية حربية واضحة المعالم لتعطل المنظومة العسكرية، من جهة، وظهور فئة، من جهة ثانية، تسعى إلى تكريس الوضع وشل الفعل الثوري من أساسه وتثبيت قيم الخيانة دفاعا عن مصالحها.

إن اكتشاف الرجل لهذا الوضع أدى إلى اغترابه واختفائه. فولدت هذه الوضعية عند الراوي شعورا بالنقص أبدى استعدادا لتعويضه بتوجيه الدعوة

إلى رياض للتحري عن رجل ينتابه إحساس بأنه يبحث عن بندقية تتمازج مع العروس فتتوحد قيم الموت والحياة توحدًا يُحدث حالة تناقض قصوى تتحكّم في سلوك المواطن الفلسطيني.

الإحالات

1– غسان كنفاني، عالم ليس لنا، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، لبنان، 1980.

2 – ولد غسان كنفاني في عكا عام 1936، عاش في يافا ونزح عنها تحت ضغط القمع الصهيوني بعد نكبة 1948 ليستقرّ مع ذويه لمدة قصيرة في جنوب لبنان. وقادته رحلته إلى الكويت (1956) ثم إلى بيروت (1960) حيث عمل محررًا في جريدة الحرية ورئيس تحرير (1963) في جريدة المحرر. وفي 1969 أسس الهدف وبقي رئيس تحريرها حتى استشهاده في 8 يوليو 1972.

3 - J. Courtès, *Analyse sémiotique du discours, op. cit.*, p. 3.

4 - R. Jakobson, *Questions de poétique,* Seuil, Paris, 1973, p.15.

5 - A. J. Greimas J. Courtès, *Dictionnaire raisonné de la théorie du langage, op. cit.*

6 - J. Courtès, *Introduction à la sémiotique narrative et discursive, op. cit.*, p. 40.

7 – القصة، ص.151.

8 – القصة، ص.151.

9 – المرجع نفسه، ص. 151.

10 – المرجع نفسه، ص. 151.

11 – المرجع نفسه، ص. 152.

12- J. C. Coquet, *Le discours et son sujet,* Klincksieck, Paris, 1985, p. 21.

13 – القصة، ص. 152، 153.

14 – المرجع نفسه، ص. 152ـ153.

15 – المرجع نفسه، ص. 153.

16 – المرجع نفسه، ص. 153.

17 – المرجع نفسه، ص. 153.

18 – المرجع نفسه، ص. 153–154.

19 – المرجع نفسه، ص. 154.

20 – المرجع نفسه، ص. 154.

21 – المرجع نفسه، ص. 154–155.

22 – المرجع نفسه، ص. 154–155.

23 – المرجع نفسه، ص. 154–155.

24 – المرجع نفسه، ص. 155.

25 – المرجع نفسه، ص. 155.

26 – المرجع نفسه، ص. 155– 156.

27 – المرجع نفسه، ص. 156.

27 – المرجع نفسه، ص. 156.

28 – المرجع نفسه، ص. 157.

29 – المرجع نفسه، ص. 161–162.

30 – المرجع نفسه، ص. 161–162.

31 – البنت (العروس) = المهر = البندقية.

32 – القصة، ص.161.

33 – المرجع نفسه، ص. 157.

34 – المرجع نفسه، ص. 162.

35 – المرجع نفسه، ص. 162.

36 - A. J. Greimas, *Du Sens II*, *op. cit.*, p. 235.

تحليل سيميائي لقصة «عائشة»

لأحمد رضا حوحو[1]

مقدمة منهجية

- مكانة البحوث السيميائية من الدراسات النقدية العربية المعاصرة

- الفوضى المصطلحية والحلول الممكنة لتجاوزها

قبل أن نعرض لتحليل هذه القصة، يجدر بنا أن نقدم بإيجاز قراءة لموقع السيميائية من البحوث النقدية المعاصرة وما تطرحه من إشكالات على الصعيدين النظري والتطبيقي.

حققت الدراسات النقدية في نهاية الثمانينيات قفزة نوعية، لا سيما بعد ظهور المحاولات السيميائية الأولى في المغرب والجزائر وتونس وبعض البلدان العربية الأخرى التي سعت إلى إحداث قطيعة جذرية مع الممارسات النقدية التقليدية وإعطاء الأولوية في التعامل مع النصوص للتفكير العلمي.

وقد صاحب هذه النقلة النوعية خطاب علمي جديد، مبني أساسا على مصطلحات تحيل على مرجعيات علمية محددة لا يمكن للباحث أن يشتغل عليها بقطع النظر عن المعرفة المسبقة لحقولها الأصلية.

إن المتتبع للتطور السيميائي المعاصر يلحظ بدون مشقة أن منحدراته العلمية تظهر في بعض جوانبها وبشكل ملموس في الدراسات اللسانية وعلى وجه التحديد في كتابي ف. دي سوسير F. de Saussure دروس في اللسانيات العامة[2] و ل. هيالمسلف L. Hjelmslev مقدمات في نظرية الكلام[3] وأعمال حلقة كارناب وبحوث الشكلانيين الروس. على هذا الأساس، نلاحظ من خلال معاينتنا للوضع المصطلحي في البحوث السيميائية الأوروبية المعاصرة إجماعا حول المصطلحية المعتمدة نلمسه في المعجم

المعقلن لنظرية الكلام [4] للباحثين أ. ج. غريماس A. J. Greimas وج. كورتيس J. Courtès وفي الدراسات النظرية والتطبيقية التي تبنت التيار السيميائي.

إن وضع المصطلحية السيميائية في العالم العربي يختلف تماما عما هوعليه في أوروبا. ولم يرق بحكم التضارب الموجود في المصطلحات المستعملة إلى بلورة نموذج مؤسس لخطاب علمي دقيق يضبط مفاهيمه وأدواته الخاصة به سلفا. يكفي أن نقرأ بعض الدراسات السيميائية لنتأكد من الاختلافات الموجودة بين الباحثين والتي تؤثر سلبا في تبليغ الرسالة العلمية وتفسر جانبا من جوانب الفشل في الاتصال القائم بين القارئ العربي والمعرفة السيميائية.

ولئن كان الخطاب السيميائي المعاصر مستعصي الفهم في لغته الأصلية، فإن الترجمة بالشكل الذي تتم به وبحكم تعبيرها عن رغبة فردية، تخضع لميول شخصية أكثر مما تخضع لفعل معرفي جماعي تزيدها غموضا على غموض ولا تفي بالغرض العلمي.

وتتعقد الأمور أكثر فأكثر عندما نعلم أن ترجمة الخطاب النقدي المنجزة في إطار السيميائية وتحديدا في المنظور الغريماسي كثيرا ما تسقط في التعميمية بدون القدرة على بلورة المفاهيم النقدية التي افترضتها أو تعتمد على جزئيات مبتورة عن السياقات المنهجية التي انبعثت منها والإشكالية البحثية التي انبنت عليها والمرجعيات العلمية التي تحيل عليها.

في غياب استراتيجية علمية واضحة، فإنه لا يراعى في الترجمة أدنى عناية بتنوع التيارات التي تحكم الخطاب السيميائي المعاصر وأدنى اهتمام بالتطور التاريخي لكل تيار خصوصا وأن المناهج النقدية الراهنة في الأوساط الجامعية كثيرة ومعقدة إلى حد تستعصي فيه على المتخصصين.

إن تبني السيميائية في الدراسات النقدية العربية المعاصرة في بداية الثمانينيات لم يكن محصلة رؤية علمية شمولية تولي أهمية بالدرجة الأولى لضرورة التفكير في الخروج من الأزمة الحادة التي كان يعانيها النقد العربي، من جهة، بسبب المواقف الراديكالية التي استهدفت المناهج الحداثية ورفضتها

بإلغائها لأي حوار يهدف إلى تقصي الحقيقة العلمية، ومن جهة ثانية، بسبب التطرف الملحوظ في التنكر لكل ما له علاقة بالتراث، ومن جهة ثالثة، بسبب غياب البحوث الجماعية والتنسيق بين الباحثين. إن التفكير في الخروج من هذه الأزمة، حتى وإن وجد على المستوى الفردي، لم يتبلور على المستوى الجماعي. ثم إن المسألة لم تكن سهلة كما يتصور البعض، ذلك أن إحداث القطيعة مع الممارسات الكلاسيكية التي جمّدت الفكر وعطّلته لا يعني بكل بساطة استبدال منهج بمنهج أو استحداث مصطلحية جديدة بقدر ما يعني التمثل الواعي والمسؤول للتراث النقدي والفلسفي والرهانات العلمية التي تقف وراء الممارسات السيميائية في أصولها. إن الهدف من إحداث القطيعة لا ينبغي أن يكون جريا وراء منهج يكرس موضة أو لاعتبارات تجارية يذهب القارئ ضحية لها، إنه قناعة علمية مستمدة أصلا من رغبة الباحث في صياغة أجوبة عن إشكاليات مطروحة بحدة في الدوائر العلمية العربية وسد الافتقار الذي يعانيه في نظام الأفكار السائد المفرز لقيم سلبية جمّدت الفكر وقيدت الحرية في البحث.

لا ينبغي أن ننظر إلى السيميائية على أنها غاية في حد ذاتها، بل وسيلة تكمن فعاليتها في الحلول التي تقدمها.

ولئن كانت هذه المعطيات تشكل وضع حال قائم، فإن الاضطراب المصطلحي الذي يُعد السمة الغالبة في البحوث النقدية، صادر عن التسرع في تبني هذا التيار أو ذاك وعن غياب رغبة حقيقية في تمثل وفهم جوهر السؤال في الممارسة السيميائية.

ولعل فحصا دقيقا للمصطلحية السيميائية المسخرة في الدراسات النقدية، يكشف إلى أي حد هي عميقة حالة الفوضى والتذبذب.

أ ـ الترجمات العديدة للمصطلح الواحد : ترجم مصطلح connotation إلى التضمن[5] / الدلالة الحافة [6] / الطاقة الإيحائية [7] الدلالة المتحولة [8].

ب ـ الترجمة الواحدة لمصطلحين مختلفين : ترجم ج. بوهاس، ج. ب. غيوم وجمال الدين كولوغلي مصطلحي narration و récit بـ السرد[9]، ويوسف غازي sémiologie و sémiotique بـ الأعراضية [10].

ج ـ الترجمتان المختلفتان للمصطلح الواحد : ترجم عبد العزيز طليمات مصطلح disjonction بِـ الانفصالات والانفكاكات[11] دون أن يلزم نفسه بترجمة واحدة، وكذلك فعل سامي سويدان الذي ترجم histoire بِـ الحكاية والخبر[12].

تأسيسا على هذه العينات، نلاحظ بوضوح أن ترجمة المصطلح في الخطاب السيميائي المعاصر تتسم بالاضطراب الذي يحول دون بث وتلقي الرسالة العلمية ويؤدي في جميع الحالات إلى نسف الأسس التي ينبغي أن ينبني عليها التواصل العلمي. فالقارئ العادي يستنتج بسهولة أن علة وجود عملية التواصل غير قائمة، مادامت الترجمة لا تؤدي وظيفتها الطبيعية وهي نقل المعرفة والمفاهيم المستجدة في الدوائر العلمية من اللغة الأصلية إلى اللغة الهدف في مصطلحية شفافة وموحدة.

إن أول خطوة يمكن أن نقوم بها في عملية ترجمة المصطلح السيميائي، هي أن نبدأ أولا بحصر المصطلحية في المعاجم والبحوث العربية المتخصصة، ونجنح ثانيا إلى ترجمة ما استعصى نقله وفق عمليات التوليد والاشتقاق والتعريب.

ينبغي أن تندرج هذه الخطوة المنهجية ضمن مشروع علمي لا يملك قيمته الحقيقية إلا إذا تحول إلى موضوع تحر جماعي[13].

1. اعتبارات نظرية

ـ تحديد مفاهيم المصطلحية المعتمدة في البحث

ضمن هذا الإطار المنهجي العام، نموضع هذه الدراسة التي نسعى من خلالها إلى فحص قصة «عائشة» باستجلاء العناصر السردية حسب ظهورها في النص وتحديد الحالات والتحويلات التي تحكم بنية الخطاب السردي.

يقوم ملفوظ الحالة (sujet d'état) على أساس العلاقة الموجودة بين الفاعل [ف] والموضوع [م] :

ف ∩ م : ملفوظ حالة وصلي (conjonctif) [الفاعل في وصلة بموضوع القيمة].

ف ∪ م : ملفوظ حالة فصلي (disjonctif) [الفاعل في فصلة بموضوع القيمة].

ولئن كان ملفوظ الحالة يشكل وضعا قارا، فإن ملفوظ الفعل يعكس التحولات التي يحدثها الفاعل المنفذ (sujet opérateur) للدخول ني وصلة بموضوع القيمة. ينبغي أن نميز في هذا المساق بين تحويلين أساسيين :

ـ التحويل الوصلي : [ف ∩ م] ⟵ [ف ∪ م] يخضع للانتقال من حالة وصلة بالموضوع إلى حالة فصلة عنه.

ـ التحويل الفصلي : [ف ∩ م] ⟵ [ف ∪ م] يخضع للانتقال من حالة فصلة عن الموضوع إلى حالة وصلة به.

تأسيسا على هذا، يتحدد البرنامج السردي بمجموعة من الحالات والتحويلات التي تقوم على أساس العلاقة الموجودة بين الفاعل والموضوع وتحويل هذه العلاقة [14].

تشكل هذه الاعتبارات النظرية نقطة ارتكاز أساسية، نستند إليها لننظر في صور الخطاب والآليات التي تتعالق بها لتشكل مسارات صورية. سيفضي بنا هذا المستوى الهام في النظرية السيميائية إلى فحص المستوى العميق، نحدد من خلاله الدورة الدلالية للقصة.

2. تقطيع النص

تعريف المقطوعة وتقطيع النص

الخطاب الموضوعي، الخطاب السردي

يمكن أن نعرف المقطوعة السردية بأنها وحدة خطابية تجري مجرى القصة القصيرة [15]. انطلاقا من هذا التعريف، نلاحظ أن قصة «عائشة» تتشكل من مقطوعتين أساسيتين.

تبدأ المقطوعة الأولى من :

«عائشة إمرأة ككل النساء الجزائريات» إلى «يعرفن حياة يومية متشابهة لا يختلف فيها يوم عن يوم». (القصة، ص. 195–196). يتقدم الكاتب في هذه المقطوعة بوصفه راويا ملاحظا يعرض على القارئ طرفين أساسيين في علاقة تتسم بطابع جدالي (polémique) : المرأة / المجتمع، تنضوي في خطاب موضوعي يسعى من خلاله إلى ممارسة فعله الإقناعي (faire persuasif) على القارئ لحمله على الاعتقاد بحقيقة المكانة التي تحتلها المرأة في المجتمع. سيفضي هذا الخطاب الموضوعي بالقارئ إلى مستوى ثان عبر عملية سرد لأحداث وقعت في الماضي يلمس من خلالها هذه الحقيقة. على هذا الأساس، يشتغل الخطاب الموضوعي والخطاب السردي على ثنائية : الحاضر/ الماضي. إن فهم الحاضر مرهون باستشارة الماضي. وعليه، يعتبر الخطاب السردي في هذا النص عنصرا جوهريا في تشكيل الفعل الإقناعي للراوي/ الملاحظ على نحو ما نرى ذلك في المقطوعة الثانية التي تمتد من : «وهكذا تتتابع أيام عائشة في قريتها» (ص.196) إلى : «ولم يبق من تلك الإحن والمحن إلا بصيص ضئيل من الذكريات المريرة» (ص.201).

3. تحليل المقطوعة الأولى

- الخطاب الموضوعي

يصف الراوي / الملاحظ في بداية هذه القصة وضع المرأة في المجتمع الجزائري الذي يقدمه على أنه مظلم :

«عائشة إمرأة ككل النساء الجزائريات، واحدة من آلاف النساء اللائي يموج بهن المجتمع الجزائري المظلم» (ص.195).

يتحدد الفاعل الجماعي / المجتمع / في النص بـِ والد عائشة وغيره من رجال الأسرة، ويتسع مدلوله ليشمل الجار (ص.195)، ويمثل في جميع الحالات فئة الرجال التي تتأسس كفاعل نجح في تحقيق مجموعة من القيم تنصهر في إقصاء المرأة وإذلالها وتشييئها (chosification). إن الراوي / الملاحظ لا يدرج أداءه المحقق ضمن برنامج سردي يوضح فيه، عبر التحولات، الأسباب التي أفضت بالمرأة إلى هذا الوضع المزري الذي فقدت

فيه حقوقها الشرعية. وإن اكتفى فقط بنقل وضع حال قائم، فإنه يؤكد من جهة أخرى :

«أنها ورثت هذه المكانة كما ورثتها والدتها عن السابقات من النساء منذ عهد قديم» (ص. 195–196).

وهي مكانة مؤطرة زمنيا بِـ «الماضي والحاضر والمستقبل» في سياق محكوم بحتمية تاريخية. وستبقى ثابتة لا تتغير. تنسجم هذه المكانة مع النشأة المحافظة للمرأة التي تدخل في علاقة تضاد مع / تطور / يقدمه الراوي / الملاحظ كبديل لبيئة جزائرية مسدودة :

«لا تعرف التطور ولا التغير» (ص.195).

يأول الراوي / الملاحظ، في هذا الملفوظ، وضعا وينتقد الفاعل الجماعي (المجتمع) الذي يتجسد سلوكه في طبيعة العلاقة التي يقيمها بفعله. ولئن كان هذا الفاعل لا يعرف، فإنه يفتقر إلى معرفة الفعل التي تنظم سلوكه في سبيل تكريس مجموعة من القيم، يجد كل طرف فيها نفسه. فهو يفكر في مصدر هذا السلوك وفي إفرازاته الخطيرة التي تتجانس والنشأة المحافظة التي تعمل على منع المرأة من امتلاك المعرفة :

«لم تتخرج من مدرسة لا شرقية ولا غربية ولم تتلق أية تربية خاصة أو نشأة معينة» (ص.195).

وإذا كانت المعرفة تُعد السبيل الوحيد الذي يضمن ممارسة حقها الطبيعي في القول والفعل، فإن العامل الجماعي (النساء الجزائريات) محكوم بوضعية لا يملك فيها القدرة والإرادة و«الحق في التفكير» (ص.196). تعد هذه العناصر التي تدخل في تشكيل كفاءته ملكا للرجال :

«فلا تتحرك ولا تسكن إلا بإرادتهم ووفقا لرغباتهم» (ص. 196).

إن الفعل مربوط هنا بإرادة ضمير الغائب «هم» الذي يسعى إلى نسف كل ما من شأنه أن يعيد الاعتبار للمرأة ويدمجها في حركية / المجتمع /. هذا الفعل

مسخر في نهاية الأمر لتكريس ثوابت تعمل على إبقاء المرأة في منزلة أقل من تلك التي يحتلها الحيوان :

«هي إذن كائن تافه لا مسؤولية له في الحياة، بل إنها أتفه من أي حيوان من الحيوانات التي يملكها والدها» (ص.196).

إذا دققنا النظر في منظور الراوي / الملاحظ، يتضح لنا أنه يخترق مجال الحياد بفضح مكامن السقوط في نظام القيم الذي يحكم فعل الرجال الممارس على النساء، ويظهر ذلك بوضوح في مجموعة من الصور [المظلم، الضيق، المظلم] المسندة تارة إلى المجتمع الجزائري وتارة أخرى إلى المحيط :

«المجتمع الجزائري المظلم» (ص.195).

«وعاشت عائشة في محيطها الضيق المظلم» (ص.195).

تتعالق هذه الصور لتشكل مسارا صوريا يكشف عن معاناة المرأة في فضائها العائلي. تتوافق هذه المعاناة مع مسارات أخرى مقترنة بمنعها من امتلاك المعرفة وعزلها وإذلالها. تنصهر هذه المسارات في تشكل خطابي يعبر بوضوح عن النشأة المحافظة :

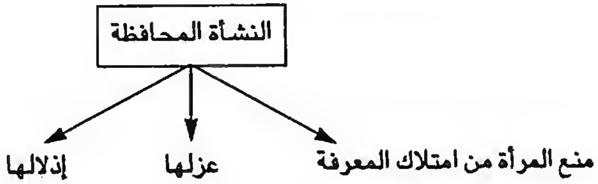

هكذا نلاحظ أن المرأة تحتل مكانة قارة. إن الثابت من القوة ما يجعلها تألف هذه الوضعية :

«وألفت هذه المكانة الخاصة في المجتمع» (ص.195).

لقد أدرك الراوي / الملاحظ خطورة الوضع وما تعانيه المرأة من ظلم ومأساة حقيقية وصلت إلى درجة يشكل فيها ذكر اسم المرأة قذارة :

«وكثيرا ما سمعت والدها يتحدث مع جاره فيقول «عبادي حشاك»، يقصد جميع نساء الأسرة، فيعتذر عن ذكر أسمائهن كما يعتذر حينما يتلفظ بلفظ قذر أمام شخص محترم» (ص.195).

يتقدم الراوي / الملاحظ في هذا الملفوظ بوصفه فاعلا / شاهدا على ممارسة احتقارية تندرج ضمن برنامج سردي يهدف فيه الفاعل المنفذ [والدها] وبواسطة ضمير الغائب «هم» المشحون بقيمة \الازدراء إلى إذلال المرأة وإقصائها من كل مقامات الكلام.

بناء على هذه المعطيات، وانطلاقا من المقابلة الأساسية : الثابت / المتحول التي سخرها الراوي/ الملاحظ لتحديد مكانة المرأة في المجتمع، يمكن أن نمثل مختلف القيم الدلالية المقيدة أثناء التحليل في المربع السيميائي الآتي :

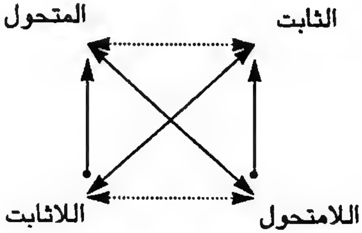

إن المجتمع بوصفه فاعلا جماعيا يتبنى برنامجا ينفي من خلاله / المتحول / بإقصائه لنشاط المرأة. فهو يملك على صعيد الجهات / معرفة فعل / ثابتة متمثلة في هذه القدرة على إعادة إنتاج الأشكال الثقافية القارة. وعليه، فإن جميع العناصر التي تدخل في تشكيل كفاءته معبأة لتكريس الثوابت المتجذرة في نظام القيم الموروث. ولئن كان الفاعل الجماعي يرفض المتحول عبر عملية النفي، فإنه لا يعرف نفسه في التغيير الذي يحمل الجديد، وبالتالي تتجانس معرفته الثابتة وتتماهى مع القديم المفرز للقيود المضروبة على عائشة في القرية. ومن هنا، فإن الثابت يولد مجموعة من الممنوعات تظهر

تجلياتها في المكانة «الخاصة» التي تحتلها المرأة في المجتمع ؛ ويمكن أن نمثل مسار الفاعل الجماعي على النحو الآتي :

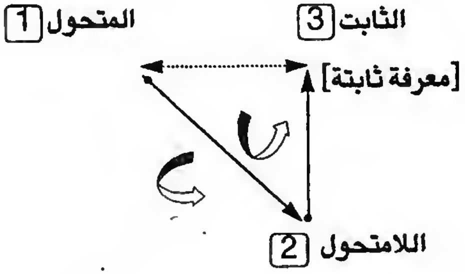

وإذا كان الراوي / الملاحظ مقتنعاً بأن البيئة الجزائرية «لا تعرف التطور ولا التغير» (ص.195)، فإنه في اعترافه بوجود الظلم، يطمح إلى ترقية المرأة وتحريرها والاعتراف بإنسانيتها وحقها في التفكير والقول وإرساء قواعد معرفة متحولة :

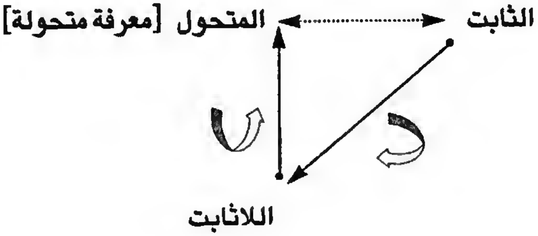

4. تحليل المقطوعة الثانية

ـ الخطاب السردي

كانت عائشة في بداية هذه المقطوعة تعيش وضعا هادئا في القرية، راضية بالقيود الممارسة عليها. تأتي قوة معاكسة (الشاب العائد من أوروبا) فتحدث اضطرابا في الوضع يؤدي إلى هروب الشاب وعائشة من القرية. ثم لايلبث أن يختل التوازن من جديد باغتصابها وفرار الشاب إلى أوروبا. تضيع عائشة

ويزداد الوضع حدة بعد نمو قوى أخرى (الذئاب) في إطار المدينة إلى أن يعاد التوازن من جديد. فتحرر عائشة من القيود.

حتى نبرز الآلية التي تحكم البنية السردية لهذه القصة، سنفحص ملفوظ الحالة في الوضع الأولي بتحديد العلاقة الموجودة بين فاعل الحالة وموضوع القيمة.

«وهكذا تتابعت أيام عائشة في قريتها إلى أن حدث الحادث الجليل الذي خرج بها عن المألوف وجعل من حياتها صورة تختلف عن صور بنات جنسها، شاب من أبناء القرية ... حتى خيالها يبدو أنه محجوز عنها لا تستطيع الانطلاق في أجوائه الرحبة الجميلة» (ص.196–197).

تبدأ القصة بوصف الوضع المتردي الذي آلت إليه عائشة. فهي محكومة بمجموعة من القيود أدركت خطورتها إدراكا جعلها تخرج عن المألوف وتسعى إلى تعويض افتقارها برغبتها في الدخول في وصلة بقيم العالم الآخر المتنافرة مع القيم التي يحملها النظام التقليدي المتجذر في القرية. من هنا، جاء إعجابها بالشاب القادم من أوروبا كمعطى ثابت في هذه المقطوعة. نحدد الإعجاب في هذا المساق بوصفه تأويلا إيجابيا لـِ / ظاهر / الشاب الذي يشتغل على المستوى التداولي كفعل اقناعي. بناء على الممارسة الاجتماعية المألوفة، تعمل أناقة اللباس على التأثير في الجنس اللطيف واستمالته باختراقه القيم الجارية في النظام التقليدي. وتظهر تجليات الفعل الإغوائي في مجموعة من الصور تتعالق مضمونيا لتنصهر في مسارين صوريين ندركهما على الصعيدين اللساني وغير اللساني :

- تشكل خطابي

- محدد بِـ

[الإثارة]

الفعل الإغوائي المتمظهر على :

الصعيد اللساني :	**الصعيد غير اللساني :**
↓	↓
المسار : أ [ص. 197/196]	**المسار ب : [ص.196]**
ـ غرائب الأحاديث	**ـ حلة إفرنجية أنيقة**
ـ الحديث العذب	**ـ شعر مصفف براق**
ـ حادثة غريبة	**ـ حذاء أسود لامع**

إن الفعل الإغوائي الذي يمارسه الشاب أحدث تغييرا جذريا في الوضعية الاستراتيجية للفاعل الجماعي [الرجال والفتيات والنسوة] الذي أضحت تملكه الرغبة في معرفة العالم الآخر [الغرب]. يمكن أن نفهم هذه الرغبة بالارتكاز على المقطوعة الأولى التي اتضح فيها أن الفاعل الجماعي [المجتمع : فئة الرجال] رافض لكل تطور ولا يعرف نفسه في التغيير الذي يحمل الجديد [«لا يعرف التطور ولا التغير»، ص.195]. تعبر عن هذا الرفض الوضعية السردية الآتية :

ف$_1$ ∪ م [الفاعل في فصلة عن المتحول «المعرفة الجديدة»].

تعد وصلته بالشاب القادم من أوروبا عاملا حاسما أفرز وضعية سردية جديدة، دخل فيها الفاعل الجماعي في وصلة بالمعرفة الجديدة : ف$_1$ ∩ م. يمكن أن نصوغ التحويل الوصلي في الشكل الآتي :

ف(ف$_2$) ⟸ [ف$_1$ ∪ م] ⟵ [ف$_1$ ∩ م]

إذا دققنا النظر في هذا التحويل، نلاحظ أن هذه الوضعية تشكل حالة خاصة في مبدإ التبادل (principe de l'échange)، ذلك أن المعرفة المبلغة لا يفقدها أي طرف[16]. على هذا الأساس، نصوغ هذه الوضعية في الشكل الآتي :

[ف$_2$ ∩ م ∪ ف$_1$] ⟵ [ف$_2$ ∩ م ∩ ف$_1$]

غير أن الراوي لا يحدثنا عن مضمون هذه المعرفة الجديدة المتسمة بالعذوبة والغرابة والمصوغة في ألفاظ غربية. إن الفاعل الجماعي لا يكتفي بامتلاك هذه المعرفة فحسب، بل يسعى، فضلا عن ذلك وفي غياب القنوات التواصلية بين الرجل والمرأة، إلى تبليغها بدوره إلى فاعل [الفتيات والنسوة] لا «يعرف الجديد ولا القديم» (ص.196). إن اتصال النسوة بالمعرفة يشكل في حد ذاته ممارسة ممنوع لايؤدي خرقه إلى تسليط عقوبة عليهن. إن تقويم الفاعل الإيجابي برضاه عن هذا التبليغ يعد انتقالا من منطق الثابت إلى منطق المتحول وتنازلا عن قيد من القيود الأساسية التي كبل بها المجتمع المرأة وأرغمها على النزول إلى مرتبة أدنى من تلك التي يتمتع بها الحيوان. ويتمثل الاختلاف الوحيد بخصوص تلقي هذه المعرفة الجديدة بين الرجل والمرأة في الإعجاب الذي يبديه الفاعل الجماعي[الفتيات]، وهو على الصعيد التيمي (tymique) شعور يبعث على السرور والانشراح. يقابل هذه الوضعية وضع أولي شهد فيه ذات الفاعل إقصاء قسريا يبعث على الحزن والانقباض. إن هذا التحويل الذي مسّ البنية السردية سيفرز حالة جديدة تظهر تجلياتها في برنامج سردي يحتل فيه الشاب موقع الفاعل المنفذ. فهو يسعى منذ البداية إلى الدخول في وصلة بالفاعل [عائشة] بالتأثير فيها بنظرته وابتسامته والتأرجح في مشيته. تحمل هذه العناصر سلطة تبليغية (pouvoir communicatif) تتجاوز حدود إعجاب الشاب بها :

«وصادف أن قابلت ذلك الشاب في طريق خال وهو يتأرجح في مشيته والتقت نظرتها بنظرته، وراقت للشاب، وهي تتمتع بشيء غير قليل من الحسن والجمال، فابتسم لها (...)، ولم تدر أن هذه الابتسامة موجهة لها محمل زيادة على معنى الإعجاب بحسنها» (ص.197).

إن لقاءها بالشاب في فضاء أجنبي يعد خرقا لثابت حامل لقيمة المنع [وجوب اللافعل]. من هذا المنظور، يندرج فعلها ضمن برنامج تهدف من خلاله إلى التحرر من القيود التي فرضها عليها المجتمع. يقف وراء هذا الفعل التحويلي الأساسي فعل الشاب المتموضع على الصعيد المعرفي (plan cognitif)، والمستهدف كفاءة عائشة [جهة معرفة الفعل]. ولتحقيق فعله الإقناعي،

يسخر مجموعة من القيم الإيجابية المفقودة في المجتمع ليقدمها كبديل لمعاناتها في القرية :

«فحدثها عن بنات أوروبا وحريتهن. كما وضح لها حقوقها في الحياة ولم ينس ذكر ما ادخره لها القانون من الحقوق والمحافظة على رغباتها» (ص. 198).

نلاحظ في هذا المقطع أن الشاب في احتلاله لموقع المرسل يحرك عائشة ويؤسسها فاعلا منفذا محتملا لمشروع الفرار وهو برنامج ملحق (programme annexe) تكون الغاية منه تنفيذ البرنامج الأساسي [التحرر] المعوض لما تفتقده في فضاء القرية من حقوق شرعية وحرية وحب وسعادة.

إن تحقيق هذه القيم مرهون بانتقالها إلى الهناك [أوروبا] الذي يقدمه الفاعل الشاب كبديل للهنا [البيئة الجزائرية].

حتى نوضح الآلية التي تحكم المقابلة بين / الهنا / (ici) و / الهناك/ (ailleurs)، ننتقل إلى المستوى الخطابي لنقدم جدولا نضبط فيه المسارين 1 و2 ضبطا يمكننا من معاينة التحويل الأساسي الذي يغذي البنية السردية :

المسار 1 [ص. 196]	المسار 2 [ص. 198]
ـ هي إذن كائن تافه لا مسؤولية له [أ] ـ إنها دولاب بشري تديره يد ذويها [ب] ـ لا تتحرك ولا تسكن إلا بإرادتهم وفقا لرغباتهم [ج] ـ لا تملك الحق في التفكير [د]	ـ وضح لها حقوقها في الحياة [أَ] ـ لم ينس ذكر ما ادخره لها القانون [بَ] من الحقوق والمحافظة على رغباتها [جَ] ـ تعيش صحبته في عيش رغد محفوفة بالحرية والحب والسعادة [دَ]
↓ العبودية	↓ التحرر

يتمفصل هذا الجدول على الصعيد السيمي (plan sémique) إلى مقابلة دلالية أساسية :

عبودية عكس تحرر

تعكس على الصعيد السردي انتقال عائشة من وضع مضطرب يكرس عبوديتها [أ، ب، ج، د] إلى وضع قار تمارس فيه حريتها بشكل تحقق فيه مجموعة من القيم [أَ، بَ، جَ، دَ] تتوافق مع رغبتها في الحياة. بناء على هذه المعطيات، أولت عائشة إيجابيا فعلِ الشاب [«انقادت لرغباته» ص.198]، فأصبحت ممتلكة، على مستوى الكفاءة، لجهتي / إرادة الفعل / و/ وجوب الفعل /. إن فعل الشاب الممارس عليها هيأ لها الشروط اللازمة لامتلاك القدرة على الفعل [تملك من القدرة ما يؤهلها لتقرير مصيرها بنفسها] أولا ومعرفة الفعل ثانيا. سيمكنها هذا الوضع الأساسي والضروري لكل تحويل من ممارسة حريتها على النحو الذي ترتضيه لنفسها :

«وسرها أول الأمر أن ترى نفسها حرة تركب القطار، وتعيش في المدن في أحضان شاب أنيق لم تكن تحلم به» (ص.198).

غير أن هذا الانشراح سرعان مايتحول إلى انقباض، تحولا يفرز وضعية، سردية جديدة :

«ولكن هذا السرور لم يدم طويلا لأن الفتى ما كاد يستولي على عفافها ويهتك ستر شرفها حتى تركها وفر قافلا إلى أوروبا من حيث أتى». (ص.198). إذا نظرنا مليا في هذه الوضعية، يتضح أن الشاب تظاهر بأنه يرغب في تغيير وضعها بتحقيق وصلة شرعية بها : إنها وضعية باطلة أدركها الراوي منذ البداية :

«فتح لها بأحاديثه المعسولة أبوابا كانت موصدة دونها» (ص.198).

يكون الحديث على المستوى المعجمي معسولا إذا تحققت حلاوة المنطق، ملاحة اللفظ وطيبة النغمة[17]. تأسيسا على هذا، فإن الشكل المتمظهر في الحقوق والحرية والحب والسعادة يجري مجرى قناع مسخر لقول شيء آخر غير التحرر يعكس عزم الشاب على تحقيق رغبة جنسية

تقوده إلى تحويل اللاظاهر إلى ظاهر (paraître)، فينتقل بذلك من وضعية باطلة إلى وضعية كاذبة [ظاهر + لا كينونة]. تنخدع الفتاة لأنها ترتكز على ظاهر يجعلها تعتقد أنه مطابق للكينونة (être)، فتضعه مباشرة في وضعية صادقة :

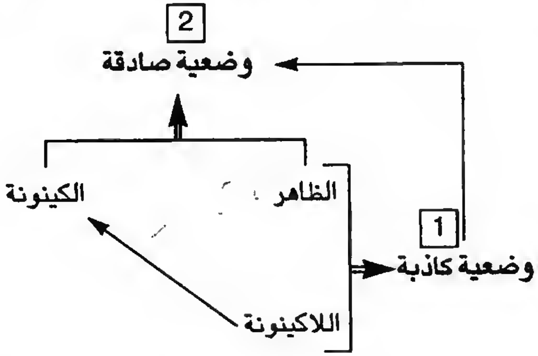

إن فرار الشاب إلى أوروبا يجعلها تدرك أن كينونته لا تطابق ظاهرا سخره لاغتصاب أنوثتها. فتقتنع اقتناعا كليا بأنه في وضعية كاذبة :

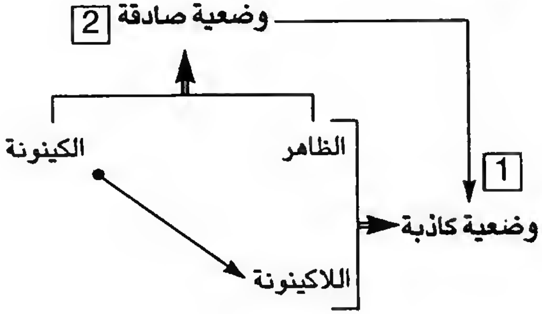

تجسد هذه اللحظة السردية الوضع المتأزم الذي آلت إليه عائشة. فهي لا تستطيع أن تعود إلى فضائها العائلي لأنها خرقت ممنوعا [الشرف] يمثل قيمة أساسية في المجتمع الجزائري. وتعني عودتها، بكل بساطة، الموت. كما أنها فقدت علة وجودها في المدينة، ويظهر هذا الوضع المضطرب بشكل واضح في الملفوظ الآتي :

«هامت الفتاة على وجهها في هذه المدينة المترامية الأطراف» (ص.198). يدل الفعل / هام / من الناحية المعجمية على الحيرة والتحرك بدون هدف، فهي «لا تدري أين تتوجه». سيفضي هذا الاضطراب إلى وضعية سردية تتحول فيها عائشة إلى موضوع تحر لذئاب بشرية تتأسس كفاعل منفذ في برنامج الصيد :

«وكانت ذئاب بشرية لها بالمرصاد تتعقب خطاها فاصطادوها في رمشة عين» (ص.198).

ينجح الفاعل في الدخول في وصلة بعائشة بوصفها فريسة. تدرك صورة الفريسة على المستوى الخطابي في تعالقها بصورتي الصيد والقتل المسندتين عموما إلى الحيوان. ندلل على ذلك بما نجده في المعاجم العربية بخصوص مادة / فرس / :

فرس الأسد فريسته فرسا : صادها وقتلها (...)، والفريسة هي ما يفرسه السبع من الحيوان (18). بهذه الإضاءات الدلالية تتضح صورة / الذئاب البشرية / التي تجمع بين سيمي / الحيوان و/ الإنسان / المنصهرين في الفعل (الاصطياد) والشكل (بشري). سيؤسس الفاعل الجماعي (الذئاب البشرية) عائشة فاعلا منفذا في برنامج الغواية :

«ودفعوا بها إلى طريق الغواية فاحترفتها (...) وتفوقت في الميدان حتى أصبحت قطبا فيه لا يباريها فيه رجل ولا امرأة» (ص.199–198).

تؤكد هذه المعطيات النصية كفاءتها المجسدة عبر قدرتها على الإثارة المتجلجلة في جمالها :

«وهي تتمتع بشيء غير قليل من الحسن والجمال» (ص. 197).

غير أن هذه الكفاءة التي تمثل مسلمة تطرح إشكالا بخصوص جهة / إرادة الفعل/. ذلك أن التفوق في الميدان مرهون سلفا بالرغبة في الفعل التي يقوم على أساسها أي تحر في إطار برنامج سردي معطى. يمكن أن نفهم

جهة / وجوب الفعل/ بوضعها المادي المتردي. فهي لا تملك، وبالتالي فإنها مضطرة إلى بيع جسدها [«الاضطرار إلى بيع جسدها» (ص.200)] المتموضع على مستوى النظير الاقتصادي (isotopie économique) :

«وقد وجدت مثيلاتها في بؤرتها يبعن أجسادهن مقابل لقمة من الخبز ...» (ص.198–199). فهي، من ناحية، تريد أن تتجاوز المعيق المادي فتنجح في ذلك، وتسعى، من ناحية ثانية، إلى فرض تمايزها على الفاعل الجماعي [الأخريات] إلى درجة إحداث قطيعة جذرية معه :

«وتتخيل نفسها من طينة تخالف طينتهم» (ص.199).

إن مبعث الرغبة في التفوق والتمايز هو الشعور بضرورة إثبات وجودها عبر الممارسة الكلامية المتميزة التي تحقق لها السمو :

«فأخذت ترى نفسها أسمى مقاما من زميلاتها» (ص.199). [أ]

«ولهذا يجب أن تسمو بأفكارها عنهن» (ص.199). [ب]

«يجب أن تكون لها فكرة أوسع من أفكارهن وأحاديث تختلف عن هذه الأحاديث البسيطة المتكررة». (ص.199). [ج]

نعتبر الملفوظ [أ] نتيجة التفوق الذي أحرزته عائشة وأهلها للارتقاء في سلم اجتماعي يتحدد موقعها فيه بالنظر إلى الأخريات وتبعا للثنائية : فوق / تحت المتمظهرة على الصعيد اللغوي [ج]. يستمد [ب] علة وجوده من شعورها بالحظوة الاجتماعية التي أضحت تتمتع بها [أ]. ينبغي أن ننظر إلى السمو، في هذا المساق، على أنه، من حيث الشكل، المعادل الموضوعي لـ «طلب العز والشرف»[19]. ويندرج هذا الطلب ضمن برنامج سردي تسعى عائشة من خلاله إلى سد الافتقار الذي أحدثه المجتمع بإذلالها والشاب باغتصابه لأنوثتها والذئاب البشرية بدفعها إلى طريق الغواية. تشكل هذه القيم التي ترغب في تحقيقها محركا أساسيا يعمل على إنشاء برنامج في فضاء تحدده، على المستوى الخطابي، مجموعة من الصور تدخل في تضاد مع تلك المربوطة بفضاء الماخور على النحو الآتي :

«محيط ضيق» (ص.199) «محيط أوسع» (ص.199)

«الماخور العفن» (ص.199) «عالم رحب» (ص.199)

إن عزمها الحاد على الانتقال من فضاء ضيق متعفن إلى فضاء واسع ورحب يجسد اشمئزازها من عالم أضحت لا تعرف نفسها فيه وإصرارها على التماس موضوع قيمة بدأ يتشكل تدريجيا :

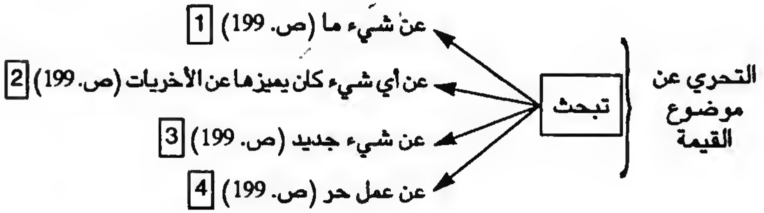

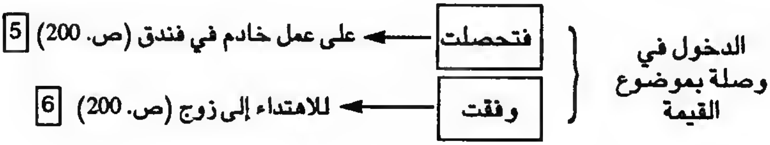

إن موضوع الرغبة في الوضعية الأولى ينصهر في شيء هيولاني، عديم الشكل، غير محدد المعالم. وهو في حد ذاته لا يهم بقدر ما يهم التغيير والخروج من عالم متعفن يفضي إلى عالم نفترض أنه يحقق لعائشة ما يميزها عن الأخريات [الوضعية الثاينة]. في الوضعية الثالثة، يقترن / الشيء / بـ / الجديد / المتعالق ضديا بـ / القديم / : «لا يعرفن الجديد ولا القديم» (ص.196). فهي، من ناحية، تعلن عن تمردها على النشأة المحافظة [القديم، الثابت] التي حرمتها من امتلاك المعرفة الجديدة وتعرب، من ناحية ثانية، عن تطلعها إلى جديد حامل لقيم تحقق لها وجودها ورغبتها في التحرر من «المحيط الموبوء» (ص.196). تتجسد هذه الرغبة في الوضعية الرابعة وبتشكل موضوع القيمة [العمل الحر]. ينبغي أن نفهم تحريها عن هذا

الموضوع على أنه محصلة لطورين متمايزين. يخص الطور الأول جهات الإضمار (modalités de la virtualité) التي أسست عائشة فاعلا منفذا في برنامج التحرر وحركتها للاضطلاع بمهمة التمرد على البيئة الجزائرية المحافظة وفرض وجودها ونفوذها وتمايزها. هذا الفعل محكوم بجهتين : / وجوب الفعل / و /إرادة الفعل / : فهي من جهة ترغب في تغيير وضعها :

«... مدفوعة بدافع حب السمو ورغبة في أن تكون لها أفكار وأحاديث ترتفع عما تفكر فيه وتتحدث به الأخريات» (ص.199).

ويخضع هذا الفعل، من جهة ثانية، لقوة ملزمة [الوجوب] مستجيبة للرغبة في الخروج من العالم المتعفن :

«يجب أن تسمو بأفكارها» (ص.199).

«يجب أن تكون لها فكرة أوسع» (ص.199).

وإذا انتقلنا إلى الجهات المحينة [/ القدرة على الفعل / و / معرفة الفعل /]، يقدم لنا النص عائشة على أنها أضحت ممتلكة لـ / القدرة على الفعل / بوصفها موضوع جهة (objet modal) تشكل في القصة تدريجيا تشكلا قلب موازين القوى، فخرجت عائشة من / الثابت / واستقرت في منطق الصيرورة و/ المتحول / :

«ولم يخفها الشارع» (ص.199).

ففي هذا الملفوظ تذكير بحالة سابقة [الوضع الأولي] تعكس بوضوح تعطل قدرتها وفعلها :

«إنها دولاب بشري تديره يد ذويها»(ص.196).

«لا تستطيع الانطلاق ...» (ص.197).

فهي خاضعة لسلطة ذويها وعاجزة أمامهم. يمكن أن نلحظ هذا الوضع بوضوح في مربع / القدرة[20]/ الآتي :

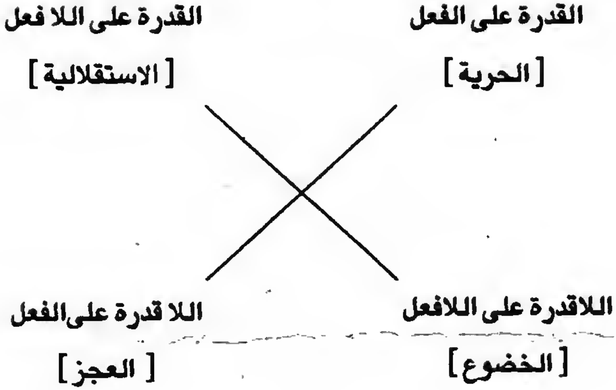

يدل الخوف في استعماله المعجمي العادي على توقع مكروه يكون غير مقبول وخطيرا وضارا[21]. يمكننا هذا المربع من تطويق وضعين متمايزين في القصة. يتسم الأول بخضوع وعجز عائشة المطلقين، ذلك أن القدرة على اللافعل وراثية في / الثابت / الذي يقترن بمجموعة من القيود تلغي حريتها وتعطل قدرتها وتجبرها على السير في «طريق مرسوم محدود» (ص.196). ويتسم الثاني بِـ / قدرتها على اللافعل / [«فأقلعت أولا عن تعاطي المخدرات» (ص.200)، «ثم أعقبت المخدرات بالانقطاع عن المسكرات» (ص.200)] وتمردها على هذا الطريق المرسوم سلفا واتخاذها قرار المواجهة [«ولم يخفها الشارع»]. وهو قرار يفترض حرية في اختيار يعكس استقلاليتها واقتناعها بتقرير مصيرها بنفسها.

إن الحرية في الاختيار تقتضي / معرفة فعل / مبنية أصلا على التفكير في الحلول الممكنة للخروج من الأزمة وتستلزم «المقدرة على توقع وبرمجة العمليات الضرورية لتحقيق البرنامج السردي»[22]. تقترن / معرفة الفعل / في النص بخبرتها :

«أكسبتها التجارب المرة خبرة» (ص.200).

ينبغي أن نضيف إلى هذه الخبرة تجربة يمكن أن نفهمها على مستوى النظير السياسي والمتمثلة في شيوع «أحاديث السياسة والوطن»(ص.199) التي كان لها عميق الأثر في تحويل مجرى كفاءة عائشة فعززت قناعتها بضرورة إحداث القطيعة مع القيم التي يحملها الخطاب المهيمن في الماخور. نلمس أهمية هذا القرار في المواجهة الحادة والعنيفة التي شنها عليها «محيطها الموبوء» الذي عمل على إضعاف رغبتها [/ إرادة الفعل/] التي «تتضارب ومصلحة العمل» (ص.200).

إن احتدام الصراع يتأسس على رغبتين متنافرتين ومنصهرتين في بنية جدالية تحكمها مقابلة تغذي هذا الصراع : المقدس / المدنس. تبرز تجليات المقدس على مستوى النظير الديني في العقيدة المقدسة التي انتشلتها من خضم رذائلها والتي تتعارض على مستوى النظير الاقتصادي مع المهنة الشائنة. ومن هنا، فإن / إرادة/ عائشة تحدد مجرى فعلها المتوافق مع النظير الديني. يمكن أن نمثل هذه المواجهة في مربع جهة / إرادة الفعل / [المستمد من نظرية مجموعة 4 كلاين Groupe de 4 Klein][23] في الشكل الآتي :

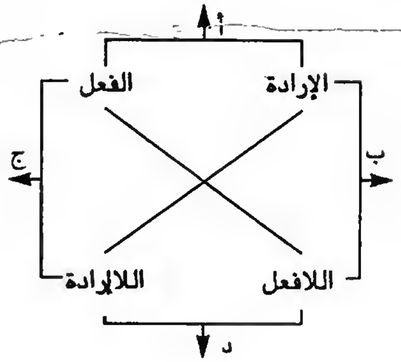

نقرأ المربع في الاتجاه الآتي : الإرادة ← الفعل بحيث تشكل الإرادة المحددة لمجرى الفعل طرف البداية. تظهر المواجهة في محور الرغبة أين تصطدم إرادتان : إرادة يوجه فيها الفاعل فعله في اتجاه تعطيل إرادة وفعل

عائشة [اللاإرادة/اللافعل : د] وتنمية ثروته باستغلال عائشة مقابل لقمة من الخبز انطلاقا من مبدأ غير متكافئ في التبادل، وإرادة يسعى فيها الفاعل إلى توجيه فعله في سبيل التحرر وتحقيق الاستقلالية [أ، ب، ج].

تأسيسا على هذه الملاحظات، يتضح أن عائشة تملك الكفاءة، أي كل المؤهلات التي تمكنها من الانتقال بسرعة إلى فعل لم تجد صعوبة في إنجازه :

«ولم يطل بها البحث، فتحصلت على عمل خادم في فندق»(ص.200) «ثم وفقت للاهتداء إلى زوج» (ص.200).

وإذا انتقلنا إلى المستوى العميق، يمكن أن نمثل التمفصلات الدلالية لهذه المواجهة من خلال مقولتين أساسيتين : الاستغلال / التحرر في المربع السيميائي الآتي :

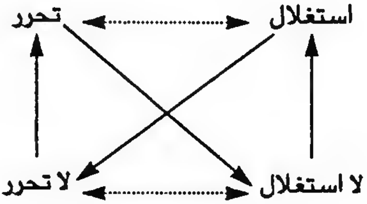

إذا نظرنا مليا في الدورة الدلالية للنص، يتضح أن عائشة سعت إلى الخروج من منطق الثابت والدخول في منطق المتحول الحامل لقيم تعمل على ترقيتها وتضمن لها حقوقها. إن الدخول في هذا المنطق مرهون سلفا بالانتقال من الفضاء العائلي [الجزائر : الهنا] إلى الفضاء الأجنبي [أوروبا : الهناك]. غير أن هذا الانتقال لم يتم ولم تحقق عائشة ما كانت تصبو إليه.

هل يمكن أن نأول إخفاقها على أنه رسالة (message) تؤكد على أن الحل الجذري لمعاناة المرأة واستغلالها يكمن في صمودها ونضالها / هنا / وأن عملية التثوير ينبغي أن تتم من داخل المجتمع وبإدماجها في حركيته ؛ وبالتالي فإن البقاء في ذات الفضاء يتقدم كشرط أساسي لتحرير المرأة ؟

ضمن هذا المنظور، ينبغي أن نفهم بقاء عائشة «القسري»،و«الدال» على أنه اختيار صعب لمواجهة غير متكافئة الفرص. وقد استطاعت، مع ذلك، أن تدخل، في نهاية هذا الصدام العنيف، في وصلة بقيم جديدة تعيد لها الاعتبار وتعترف بوجودها كإنسان فاعل في مجتمع اضطر في نهاية الأمر إلى الرضوخ لسلطانها والخضوع لإرادتها :

«... فلم يشأ أن يتساهل معها ويخضع لإرادتها» (ص.200).

ويدل هذا الخضوع دلالة قاطعة على تقويم المحيط الإيجابي لأدائها وهو مبني على تأويل يفضي إلى تمجيد عائشة بوصفها بطلة. لقد مكنها النجاح في مشروعها من الانتقال من الثابت إلى المتحول بنفي الاستغلال وتثبيت التحرر :

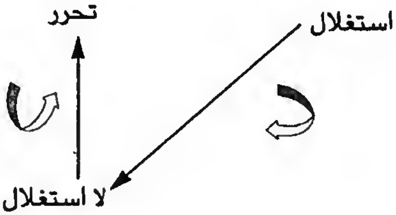

إن تحقيق هذه النقلة يجري في الاتجاه المعاكس للفاعل الجماعي [المجتمع] الساعي إلى فرض نظام الثابت في سبيل تكريس الاستغلال وضرب كل ما له علاقة بالمتحول :

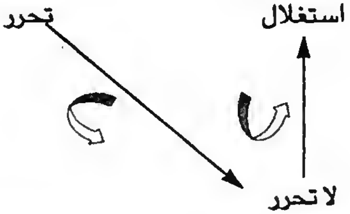

وقد اتضحت هذه المعارضة العنيفة لطموحات عائشة ورغبتها في التحرر في الملفوظ الآتي :

«... ضج منها محيطها الموبوء وأصبح لا يتحملها ولا يقوى على احتمال نزعتها الجديدة» (ص.200).

لم ينجح الفاعل في تحقيق هذا المسعى وفي صموده أمام قيم جديدة قلبت موازين القوى وألجأته إلى «التساهل معها» و«الخضوع لإرادتها».

الخاتمة

تأسيسا على ما سبق، نلاحظ أن المواقع الاستراتيجية للفاعل الجماعي [المجتمع] اهتزت بفشله في تثبيت الفعل الوراثي من أجل المحافظة على نظام يقصي كل ما له علاقة بترقية المرأة وحريتها وحقها في التفكير والكلام والوجود. وقد شكلت هذه القيم المنصهرة في موضوع تحري عائشة خرقا لقانون العائلة الريفية والنظام القيمي التقليدي ودعوة صريحة إلى ضرورة إحداث قطيعة جذرية مع العالم المتخلف. وقد لمسنا هذه الدعوة بوضوح في الخطاب الموضوعي للراوي/ الملاحظ الذي أبرز المرتبة الدنيا التي تحتلها المرأة في سلم اجتماعي يشيئها ولا يعترف لها بحقها في الوجود. وقد سخر قصة عائشة باستشارة الماضي وتحيين الحاضر لإقناع الأطراف الفاعلة في المجتمع بهذا الوضع الذي آلت إليه وأن السبيل الوحيد لخلاصها منه وتحررها من قيوده وبناء مستقبل يكفل لها كرامتها الإنسانية هو نضالها.

الإحالات

1 ـ أحمد رضا حوحو، غادة أم القرى وقصص أخرى، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1989.

ـ ولد الكاتب بقرية سيدي عقبة قرب بسكرة في سنة 1911، انقطع عن الدراسة بعد أن نال الشهادة الابتدائية. ثم لم يلبث أن انتقل في سنة 1934 إلى الحجاز حيث استأنف دراسته. صدرت له أول مقالة بمجلة الرابطة العربية بعنوان «الطرقية في خدمة الاستعمار» (1937). ثم أخذ ينشر في مجلة المنهل المكية. وبعد عودته إلى الجزائر في 1946، انضم إلى جمعية العلماء، ثم عين مديرا لمدرسة التربية والتعليم بقسنطينة. وقد شغل منصب كاتب عام بمعهد عبد الحميد بن باديس بعد أن عين في 1947. وظل مضطلعا بهذه المهمة إلى أن استشهد في ربيع سنة 1956. لمزيد من التفصيل، انظر :

ـ د. عبد الملك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر 1931–1954، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983.

2- F. de Saussure, *Cours de linguistique générale, op. cit.*

3 - L. Hjelmslev, *Prolégomènes à une théorie du langage*, Éd. Minuit, Paris, 1984.

4 - A. J. Greimas, J. Courtès, *Dictionnaire raisonné de la théorie du langage, op. cit.*

5 – جوزيف شريم، «التعيين والتضمين في علم الدلالة»، مجلة الفكر العربي المعاصر، العددان 18–19، مركز الإنماء القومي، بيروت، آذار 1982، ص. 72.

6 – جورج مونان وآخرون، البنيوية والنقد الأدبي، ترجمة محمد لقاح، دار إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 1990، ص. 75.

7 – حميد الحميداني، سحر الموضوع، مطبعة النجاح الجديدة، المغرب، 1990، ص.93.

8 – سعيد علوش، النقد الموضوعاتي، شركة بابل للطباعة، الرباط، 1989، ص.11.

9 – جورج بوهاس وآخرون، معجم اللسانيات، مجلة التواصل اللساني، المجلد الثالث، العدد الأول، دار النجاح الجديدة، المغرب، مارس 1991، ص. 76 – 86.

10 – يوسف غلزي، مدخل إلى الألسنية، دمشق، 1985، ص. 270.

11 –عبد العزيز طليمات، «الوقع الجمالي وآليات إنتاج الوقع عند ولف غانغ إيزر»، دراسات سيميائية، العدد السادس، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، خريف/ شتاء 1992، ص. 63.

12 – سامي سويدان، « مقاربة سيميائية قصصية، اللص والكلاب » لـ نجيب محفوظ، مجلة الفكر العربي المعاصر، العددان 18 – 19، مركز الإنماء القومي، بيروت، آذار 1982، ص. 226.

13- A. J. Greimas, J. Courtès, *op. cit.*, p.III.

14- Groupe d'Entrevernes, *Analyse sémiotique des textes*, *op. cit*.

15- A. J. Greimas, J. Courtès, *op. cit.*, p. 348.

16- *Ibid.*, pp. 28 - 29.

17 – ابن منظور، لسان العرب المحيط، دار الجيل – دار بيروت، لبنان، 1988، الجزء الرابع، ص. 778–779.

18 – إبراهيم مصطفى، أحمد حسن الزيات، حامد عبد القادر، محمد علي النجار، المعجم الوسيط، دار الدعوة، استانبول، تركية، 1989.

19 – المرجع نفسه.

20- A. J. Greimas, *Du Sens II*, *op. cit.*, p. 220.

21 –إبراهيم مصطفى، أحمد حسن الزيات، حامد عبد القادر، محمد علي النجار، المعجم الوسيط،مرجع سبق ذكره.

22 - Goupe d'Entrevernes, *op. cit.*, p. 35.

23 - J. Courtès, *Analyse sémiotique du discours*, *op. cit.*, p. 105.

مكتبة
الأدب

رواية

الأدب
المغربي

سيميائية الفضاء في رواية ريح الجنوب[1]

حققت السيميائية قفزة نوعية في دراسة الأشكال السردية بخاصة، والتجليات اللسانية وغير اللسانية بعامة. فبسطت نفوذها العلمي على حقول معرفية متنوعة، وأظهرت قدرة كبيرة في معاينتها وتقصيها بإقامة نماذج تحليلية مبنية أساسا على المنظور الافتراضي الاستنباطي.

ينطلق التحليل السيميائي من فرضية مفادها أن الفضاء نظام دال يمكن أن نحلله بإحداث التعالق بين شكلي التعبير والمضمون، وننظر إليه على أنه مركب كالكلام ؛ أي ما يدل عليه (المضمون) هو من غير طبيعة ما يدل به (التعبير)[2]، ويرتهن في وجوده الدلالي إلى الفعل الممارس فيه والقيم المحققة من استعماله[3].

ستستند دراستنا إلى هذه القاعدة النظرية التي سنفحص من خلالها التحويلات الدلالية المحورية لفضاءين نفترض أنهما مركزيان في النص : القرية والمدينة.

تبدأ رواية ريح الجنوب بوضع مضطرب ناجم أصلا عن عدم مقدرة نفيسة على الانسجام مع مايفرزه ظاهر القرية، دالها من خلوة وصمت وحزن :

«القنابل الذرية التي يتحدثون عنها لا تستطيع أن تجعل مكانا أشد خرباً من هذه القرية» (ص.8).

تبدو نفيسة في هذا المقطع السردي في حالة ضياع كلي يتجلى عبر مسار صوري تجسده مجموعة من الصور المتجانسة تحيل على الواقع المأسوي للقرية : / الغربة /،/ الصمت /،/ الخراب /،/ الصحراء /(ص.8)/ المنفي /، / القبور /(ص.26). إن فضاء/ القرية /، في سكونيته وثباته وافتقاده إلى عناصر الحياة، يتحرك بوصفه فاعلا مضاداً لرغبة نفيسة في الاستراحة. فتتحول القرية من فضاء العطلة / الحياة / إلى فضاء / الموت / تحولاً يجعل

مسألة تحقيق برنامجها السردي الخاص بقضاء عطلتها الصيفية أمراً مستحيلاً.

ويزداد الضغط حدة بضيق فضائها العائلي (الغرفة) :

«جدران أربعة وسقف من خشب وصمت» (ص.8).

«الحجرة ضيقة طولها ثلاثة أمتار وعرضها كذلك، بها كوة خارجية مطلة على جزء من البستان» (ص.8).

ليست الغرفة مجرد شكل هندسي وإنما هي عنصر فاعل يدخل في علاقة تضاد مع رغبة نفيسة في الاستراحة من تعب الدراسة.

ومن هنا تتخذ الغرفة مدلولها المتسم بالقبح والباعث على الانقباض ليتعالق ضديا بالمنظر الخلفي الجميل الباعث على الانشراح والذي تفضي إليه كوة الحجرة المفتوحة بشكل يتوافق مع ما يريد أن يراه مخططها. وبالتالي فإن نفيسة المعطلة حركياً، لا تملك الاختيار في توجيه رؤية يبقى مجالها محدودا وفي اتجاه واحد.

هكذا نلاحظ أن الحجرة مسخرة للكلام عن شيء آخر غير الفضاء، يتمثل في عزل الفتاة عن العالم الخارجي واستلاب حريتها. هذا السلوك الممارس على نفيسة يفقدها جانبا هاما من إنسانيتها ويؤدي إلى الاختناق والتفجر :

«أكاد أختنق ...» (ص. 8)

«أكاد أتفجر ! أكاد أتفجر ...» (ص. 10).

وإذا تمعنا في الوضع الذي آلت إليه نفيسة، فإننا نجده جاء نتيجة عدم مقدرتها، في هذه اللحظة من السرد، على تجاوز المعيق الفضائي المشحن بقيمة / المنع / :

«إن أمي تمنعني من الخروج هنا ... في هذه القرية الخالية ! بينما في الجزائر، حيث في كل خطوة رجل، أخرج دون أن ينكر علي أحد ذلك. فلماذا الخروج هنا عيب وهناك لا ؟» (ص. 38).

ينتج التمييز القائم بين الرجل والمرأة، بين / الأنوثة / و / الذكورة / توزيعا فضائيا خاضعا لنظام القيم الذي يحكم علاقات الفاعلين في المجتمع. وكل تغيير في الفضاء يرافقه تغيير في القيم. وينبغي أن نفهم انتقال نفيسة من المدينة (الجزائر) إلى القرية بأنه انتقال من نظام إلى نظام مغاير. ويكون الفاعل المتنقل أمام أمرين : إما أن يلغي ذاته ويتبنى في فعله قيما لا يعرف نفسه فيها فينسجم مكرها ويدخل في تواصل بالآخر على حساب قناعاته، وإما أن يصمد ويدخل في مواجهة الآخر دفاعا عن قناعاته. في ضوء هذا الإشكال الخلاقي تحتل نفيسة منزلة وسطى بين الأمرين. فهي تحتج احتجاجاً محملاً برسالة رفض للوضع القائم لأنها لم تستسغ حضور فروقات جوهرية بين الرجل والمرأة في القرية وغيابها في المدينة : هنا لا تخرج وهناك تخرج. يطوع هنا الفضاء لاحتوائها، ويسخر هناك لممارسة وجودها. هنا يبدو عابد بن القاضي مالكاً لفضاء القرية، متحكما فيه، يستهلكه بيسر، يتنقل، يجتاز الطرقات بكل سهولة، يدخل بمرونة ويخرج. وفي / الهنا / ذاته، وبالمقابل، تجد نفيسة نفسها ملكا لفضاء يعد اختراقه ممنوعا. على اساس هذه المعطيات، تبدو الحياة في القرية مستحيلة ويبقى حنينها إلى المدينة مربوطاً بجمال إطارها :

«الجزائر، الشوارع الطويلة، بالليل تبدو سماؤها صافية بنجومها المتلألئة اقتربت من الأرض ألف مرة ... عماراتها تتحدى قمم الجبال علوا، الياسمين عاطر لا تعرفه البادية ... البحر مرآة السماء ترى الشمس فيه وجهها» (ص.216).

لم تتكلم نفيسة عن فضاء المدينة وقيمه الجمالية سوى لأنها لاتجد صعوبة في ممارسة حضورها فيه، ممارسة تستجيب لرغبتها في التمتع بجماله وعناصر ديكوره التي تدخل في تشكيله وتفتقده البادية. يمثل فضاء المدينة حياتها وحدود عالمها.

تشتغل الرواية إذن على فضاءين مركزيين : واقع القرية المأسوي، والحنين إلى المدينة، والقرية ما هي إلاّ فضاء مبهم تجتمع فيه كل أسباب اليأس والضياع.

بناء على ما تقدم من ملاحظات، يمكن أن نقيد في هذا المساق مقابلة أساسية بين / القرية / و / المدينة / قائمة على فروقات جوهرية متجانسة، على صعيد المدلول، مع طبيعة العلاقةو الاجتماعية الموجودة بين الرجل والمرأة. ولبلورة هذه العلاقة، يجدر تتبعها في مستوى آخر يجسده الفعل الذي يمارس في الفضاء[4].

يتمظهر هذا الفعل في فضاء عابد بن القاضي الذي يريد تنفيذ برنامج تزويج ابنته نفيسة من مالك. ولفهم الآلية التي تحكم هذا البرنامج وتجلياته الدلالية، سنفحص العلاقة الموجودة بين الفاعل المنفذ وفعله.

يتضح من خلال معاينتنا للنص أن هذه العلاقة تظهر بشكل بارز في الملفوظات الآتية :

1ـ «أبوك يعتزم تزويجك» (ص.87).

2ـ «أنا قررت أن تتزوج وقراري قضاء» (ص.90).

3 ـ «يجب أن تقنعيها بالحسنى. هي صغيرة لاتفرق بين ما يصلح ولا يصلح» (ص.91).

يحتل عابد بن القاضي في الملفوظ الأول موقع فاعل منفذ يمارس فعلا خاضعا لرغبته (الإرادة ـ الفعل) في تزويج إبنته. وتتماهى في الملفوظ الثاني هذه الرغبة الحادة في قراره النهائي الذي يقصي من اتخاده الطرفين الحقيقيين المعنيين بمسألة الزواج. في الملفوظ الثالث، يصير الفعل الإقناعي المشحون برسالة تهديد (بالحسنى) واجبا والقبول حقيقة. وبما أن الفتاة صغيرة، فإنها لم ترق بعد إلى درجة امتلاك الفعل التأويلي المتموضع على الصعيد التداولي الذي يمكنها من تكييفه بحسب منفعتها. وبالتالي يجب أن تقبل العقد وتنقطع عن الدراسة وتستقر بالبادية («أبوك أراد ذلك، لن تعودي إلى الجزائر») (ص.86).

إذا دققنا النظر في فعل ابن القاضي، نلاحظ أنه يندرج ضمن برنامج سردي ملحق (مصاهرة شيخ البلدية) يهدف من خلاله إلى تنفيذ برنامج أساسي تكون الغاية منه حماية أراضيه من قانون الإصلاح الزراعي الذي تعتزم السلطة السياسية تطبيقه :

«لولا ما يخشاه من ضياع أرضه لاستطاع ان يدعها تعود إلى الجزائر لمواصلة دراستها، ولأمكنه أن لا يرغمها على الزواج إذا لم تكن راضية» (ص.91).

إزاء هذا الوضع، ستبني نفيسة بشكل ارتقائي قرارها النهائي على نحو ما يظهر ذلك في الملفوظات الآتية :

«إنني مجنونة أفكر في الزواج» (ص.9).

«قولي له لن أتزوج، ولن أنقطع عن دراستي. سأعود إلى الجزائر مهما كان الحال» (ص.88).

«لاتريد الزواج في الوقت الراهن لا بشيخ البلدية ولابغيره»(ص. 189-190).

«لا أرغب في الزواج» (ص. 202).

«قررت ...» (ص. 202).

«الجزائر آه ! ما أمر الحياة هنا» (ص. 216).

ترتكز هذه الملفوظات على ثنائية ضدية تتمفصل إلى : / عزوبة / عكس /الزواج / تغذي، منذ بداية القصة، الصراع بين عابد ابن القاضي ونفيسة التي ترفض فكرة الزواج وتبعده من مجال تفكيرها. ويمكن أن نعتبر هذا الرفض امتدادا لتمردها على القيم المستثمرة في فضاء القرية. فهي / لا ترغب / في الزواج و / لا يجب / أن تتزوج. إن قناعتها بضرورة تقرير مصيرها بنفسها مستمدة أصلا من قدرتها على ممارسة حريتها الفردية. ننظر إلى

الحرية، في هذا السياق، على أنها قيمة مفرزة من نظام المدينة الذي يأتي كبديل لنظام القيم المتجذر في فضاء القرية.

هكذا يتضح لنا أن استهلاك الفضاء مربوط بطبيعة القيم المستثمرة فيه. إن رفض نفيسة لفضاء البادية يملك مشروعيته عن قناعتها بأن الحياة فيها متسمة بمرارة ناجمة أساسا عن غياب المرافق الضرورية للحياة وحضور مكثف لقيم تشيء المرأة وتفقدها جانبا هاما من إنسانيتها. وقوّى اكتشافها لهذه الحقيقة المرة حنينها إلى المدينة ورغبتها في الدخول في وصلة بها. وقد تبلور هذا الحنين في مشروع الفرار الذي تجسده الملفوظات الآتية :

«الفرار هو الحل» (ص. 218).

«الجمعة مقررة للهروب (...) تم إحكام برنامج الهروب» (ص.237).

«يجب أن أنفذ ما قررت (...) لا، لن أتراجع» (ص. 238).

«انطلقت نفيسة باتجاه المحطة» (ص. 240).

«لم تكن تفكر إلا في الوصول إلى المحطة والسفر إلى الجزائر» (ص.241). إن مشروع الفرار ليس في الواقع سوى برنامج ملحق يمكن نفيسة، بوصفها فاعلة منفذة، من تحقيق برنامج أساسي تسعى من خلاله إلى تحرير المرأة («أبحث عن تحرير المرأة ...»ص.217) في البادية الجزائرية التي تدهورت فيها القيم وتصدعت. من هنا ينبغي أن ننظر إلى مغامرة هروب نفيسة على أنها تشكل أزمة ثقة في القيم التي يفرزها فضاء القرية.

إن الأمل في حياة أفضل جعل نفيسة تدرك أن القيم في فضاء البادية لا تهدف إلى الإبقاء على التماسك الاجتماعي ولا تستجيب لطموحات الإنسان المشروعة، بل تهدف إلى تكريس التمزق الاجتماعي واستلاب حرية المرأة.

هكذا يتضح لنا أن رواية ريح الجنوب مبنية أساسا على فضاءين مركزيين يمرران عبر تضادهما مجموعة من القيم تعبر عن التناقضات التي أفرزها

انتقال الجزائر المستقلة من عالم التخلف إلى عالم التحضر. وقد أحدثت عملية التحري عن قيم المدينة تصدعا في البنية الاجتماعية يجد تجلياته في صراع الأجيال المجسد في المواجهة العنيفة بين عابد بن القاضي ورابح راعي الغنم، والتي انتهت بعودة نفيسة إلى فضائها العائلي.

ثبت المصطلحات

axiologique	خلاقي
conjonction	وصلة
contenu	مضمون
espace	فضاء
expression	تعبير
faire interprétatif	فعل تأويلي
faire persuasif	فعل إقناعي
hypothético - déductif	افتراضي استنباطي
langage	كلام
linguistique	لساني
modèle analytique	نموذج تحليلي
narratif	سردي
opposition	مقابلة
programme narratif annexe	برنامج سردي ملحق
sémiotique	سيميائي
sujet opérateur	فاعل منفذ
valeur	قيمة
vouloir- faire	إرادة – الفعل

الإحالات

1- عبد الحميد بن هدوقة. ريح الجنوب، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1976.

2- J. Courtès, *Analyse sémiotique du discours*, *op. cit.*, p. 30.

3 - A . J. Greimas, J. Courtès, *Dictionnaire raisonné de la théorie du langage*, *op. cit.*, p. 133.

4 - Nicole Everaert - Desmedt, *Sémiotique du récit*, Louvain la neuve, 1984, p. 202.

البيبليوغرافيا

باللغة العربية

– إلود إبش، د. و. فوكما، «مناهج الدراسة الأدبية وخلفياتها النظرية والفلسفية»، تعريب محمد العمري في دراسات سيميائية أدبية لسانية، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، مجلة فصلية، العدد الثاني، شتاء 87/ربيع 88.

– ابن رشد، تلخيص كتاب المقولات، حققه محمود قاسم، الهيئة المصرية للكتاب، مصر، 1980.

– ابن منظور، لسان العرب المحيط، الجزء الرابع، دار الجيل – دار بيروت، لبنان، 1988.

– خليل أحمد، حوار مع أ. ج. غريماس، الموقف الأدبي، العدد 15، نوفمبر 1980، اتحاد كتاب دمشق.

– آن إينو، مراهنات دراسات الدلالات اللغوية.

– عبد الحميد بن هدوقة، ريح الجنوب، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1976.

– جورج بوهاس وآخرون، «معجم اللسانيات»، مجلة التواصل اللساني، المجلد الثالث، العدد الأول، دار النجاح الجديدة، المغرب، مارس 1991.

– حميد الحميداني، سحر الموضوع، مطبعة النجاح الجديدة، المغرب، 1990.

– «تحليل سيميائي لنص سردي»، دراسات سيميائية، العدد الثالث.

– أحمد رضا حوحو، غادة أم القرى وقصص أخرى، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1989.

– سامي سويدان، «مقاربة سيميائية قصصية : اللص والكلاب لـ نجيب محفوظ»، مجلة الفكر العربي المعاصر، العددان 18– 19، مركز الانماء القومي، بيروت، آذار 1982.

– جوزيف شريم، « التعيين والتضمين في علم الدلالة»، مجلة الفكر العربي المعاصر، العددان 18 – 19، مركز الإنماء القومي، بيروت، آذار 1982.

– عبد العزيز طليمات، «الواقع الجمالي وآليات إنتاج الوقع عند وولف غانغ إيزر»، دراسات سيميائية، العدد السادس، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، خريف / شتاء، 1992.

– سعيد علوش، النقد الموضوعاتي، شركة بابل للطباعة، الرباط، 1989.

– يوسف غازي، مدخل إلى الألسنية، دمشق، 1985.

– غسان كنفاني، عالم ليس منا، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، 1980.

– كلود ليفي ستروس وفلاديمير بروب، مساجلة بصدد: «علم تشكل الحكاية»، ترجمة محمد معتصم، عيون المقالات، الدار البضاء، 1988.

– مجلة اللسانيات العامة، المجلد الرابع، العددالثاني، سبتمبر 1982، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيصاء، المغرب.

– عبد الملك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر 1931 – 1954، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983.

– عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، الدار العربية للكتاب، تونس، 1982.

– إبراهيم مصطفى، أحمد حسن الزيات، حامد عبد القادر، محمد علي النجار، المعجم الوسيط، دار الدعوة، إسطانبول، تركية، 1989.

– جورج مونان وآخرون، البنيوية والنقد الأدبي، ترجمة محمد لقاح، دار إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 1990.

باللغة الفرنسية

- Jean-Michel Adam, *Le recit*, P. U. F., 1991.

- Michel Arrivé, F. Cadet, M. Galmiche, *La grammaire d'aujourd'hui, guide alphabétique de* linguistique française, Flammarion, Paris, 1986.

- J. C. Coquet, *Le discours et son sujet*, 2 tomes, Klincksieck, Paris, 1984 - 1985.

- J. C. Coquet et autres, *Sémiotique. L'École de Paris*, Paris, 1982.

- J. Courtès, *Analyse sémiotique du discours*, Hachette, Paris, 1991.

- Joseph Courtès, *Introduction à la sémiotique narrative et discursive*, Hachette, Paris, 1976.

- Ferdinand de Saussure, *Cours de linguistique générale*, Payot, Paris, 1972.

- Nicole Everaert-Desmedt, *Sémiotique du récit*, Louvain la neuve, 1984.

- Claude Germain, *La sémantique fonctionelle*, P. U. F., Paris, 1981.

- A. J. Greimas, *Du Sens*, Paris, 1970.

- A. J. Greimas, *Du Sens II*, Seuil, Paris, 1983.

- A. J. Greimas, "Les acquis et les projets", in J. Courtès, *Introduction à la sémiotique narrative et discursive*, Paris, 1976.

- A. J. Greimas, *Sémantique structurale*, P. U. F., 1966, réédité en 1986.

- A.J. Greimas, J. Courtès, *Dictionnaire raisonné de la théorie du langage*, Hachette, Paris, 1979.

- Groupe d'Entrevernes, *Analyse sémiotique des textes*, P. U. L., Lyon, 1984.

- Anne Henault, *Histoire de la sémiotique*, P. U. F., Paris, 1992.

- L. Hjelmslev, *Prolégomènes à une théorie du langage*, Éd. Minuit, Paris, 1984.

- Roman Jakobson, *Questions de poétique*, Seuil, Paris, 1973.

- G. Mounin, *Clefs pour la linguistique*, Éd. Seghers, Paris, 1988.

- Vladimir Propp, *Morphologie du conte*, Seuil, Paris, 1970.

- H. Reichenbach, *L'avènement de la philosophie scientifique*, Flammarion, Paris, 1955.

- Lucien Tesnière, *Eléments de syntaxe structurale*, Klincksieck, Paris, 1982.

- T.Todorov, *Théorie de la littérature, textes des formalistes russes*, Seuil, Paris, 1965.

الفهرس

القسم النظري

الأصول اللسانية والشكلانية للنظرية السيميائية 5

مقدمة منهجية 5

1. قراءة في كتاب تاريخ السيميائية 6

2. الأصول اللسانية للنظرية السيميائية 7

2. 1 موقع المسألة الدلالية من البحوث اللسانية 7

2. 2 مبدأ المحايثة 9

2. 3 مبدأ الاختلاف 10

2. 3. 1 المربع السيميائي 14

2. 3. 2 الملفوظ السردي 17

2. 3. 3 الكفاءة والأداء 18

3. الأصول الشكلانية للنظرية السيميائية 28

ثبت المصطلحات 37

الإحالات 42

القسم التطبيقي

قراءة سيميائية في قصة «العروس»

للروائي غسان كنفاني 49

مقدمة منهجية 49

1. تحليل الرسالة الأولى 51
2. تحليل الرسالة الثانية 53
الإحالات 67
تحليل سيميائي لقصة «عائشة»
لأحمد رضا حوحو 69
مقدمة منهجية 69
1. اعتبارات نظرية 72
2. تقطيع النص 73
3. تحليل المقطوعة الأولى 74
4. تحليل المقطوعة الثانية 78
الخاتمة 93
الإحالات 94
سيميائية الفضاء في رواية
ريح الجنوب 97
ثبت المصطلحات 104
الإحالات 105
البيبليوغرافيا 107

طبع دار القصبة للنشر
فيلا 6، حي سعيد حمدين – حيدرة – 16012 الجزائر
الهاتف : 08 21 69 (02) / 14 21 69 (02)
الفاكس : 44 20 69 (02)
–2000–

مكتبة
الأدب
المغربي

هذه السلسلة موجهة أساساً إلى الجامعيين : أساتذة، باحثين وطلبة، والهدف منها هو رفع الرصيد المعرفي بأسلوب منهجي يعتمد على الدقة والجدية.

تنقسم هذه الدراسة إلى قسمين أساسيين.
تقصى المؤلف في القسم الأول الأصول اللسانية والشكلانية التي انبنت عليها النظرية السيميائية واستمدت منها مصطلحيتها العلمية بالتركيز على بعض المفاهيم التي كان لها عميق الأثر في بناء الصعيد السردي لهذه النظرية.
أما القسم الثاني فهو محاولة لتثبيت المكتسبات النظرية التي تم التطرق إليها عند عرض أسس هذه النظرية، وذلك من خلال معالجة المؤلف لقصتي «العروس» لغسان كنفاني و«عائشة» لأحمد رضا حوحو ورواية «ريح الجنوب» لعبد الحميد بن هدوقة، ويهدف المؤلف من خلال هذه المحاولات التطبيقية إلى تبسيط القواعد النظرية التي يرتكز عليها التحليل السيميائي.

تدمك : 0 - 243 - 64 - 9961

دار القصبة للنشر